الفصل الأول

حكاية قصر، من حكايات الجن

سمعت عبارة «أيها الملك» – وأن الملك سار إلى وسط القصر والتفت ولكنه لم يشاهد أحد. وكان القصر مفروشاً بسجاد من حرير وفيه قطع عند عتبات الأبواب من الجلد لمسح الأحذية وكانت الستائر تغطي جدران القصر. وكانت هناك أيضاً مقاعد طويلة وأرائك عليها مساند إضافة إلى خزن في الجدران. وكان في وسط القصر ساحة فسيحة محاطة بأربع قاعات متجاورة ومتقابلة. وكان في وسط القصر بركة ماء تجثم عليها أربعة أسود مطلية بالذهب الأحمر تنزل المياه من أفواهها قطرات وكأنها لؤلؤ وياقوت. وحول البركة أيضاً طيور تغرد تحت شبكة عالية موضوعة لتمنعها من الهروب بعيداً .. من «قصة ابن الملك والغولة» – من ألف ليلة وليلة، ترجمة حسين هداوي (نيويورك ولندن ١٩٩٠) .

يقول العديد ممن زاروا أبنية قصر الحمراء أن الأبنية هناك هي أجمل أبنية في العالم. إن التصميم العبقري للقصور وغنى الزخرفة تريح الناظرين. تبدو أبنية الحمراء وكأنها نسخة عن قصر شرقي في هوليوود. في الحقيقة فإن قاعة الأسود وقاعة نبات الآس العطري (ميرتكز) قد استخدمت في أفلام سندباد للمخرج / ريه هاري هوسين/ . وبالرغم من المتعة التي يحققها الزائر من زيارته إلى أبنية الحمراء إلا أن فهمها ليس بالشيء السهل. فكلما تعمق المرء في دراسة عمل وروعة أجزائها المختلفة وحاول فهم الطريقة التي عاشها الناس كلما ازداد غموض هذه الأبنية وازداد غموض من عاشوا فيها. لايمكن للمؤرخين وعلماء الآثار التوصل لمعرفة كل شيء فلهم حدودهم .

إن تاريخ أسبانيا في العصور الوسطى هو نضال بين المسلمين والمسيحيين من أجل التفوق والسيطرة على شبه الجزيرة الأسبانية. بقيت كل أسبانيا والبرتغال تقريباً ولعدة قرون، تحت الحكم الأسباني إثر الغزو العربي والمورسكي لتلك البلاد. بدأ الفتح المسيحي لأسبانيا يتداعى في منتصف القرن الحادي عشر (لقد كان بشيراً بحرب الصليبيين ضد المسلمين في الشرق والذي بدأ في نهاية القرن الحادي عشر أيضاً). سقطت

أكبر المراكز الإسلامية في أسبانيا واحدة بعد الأخرى أمام الجيوش المسيحية (توليودو ، قرطبة ، سفاتل). جاء الهجوم على غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر كآخر معركة في معارك ذلك القرن بين الجيوش المسيحية والإسلامية .

حدث في شهر كانون الثاني من عام ١٤٩٢م أن استسلمت مملكة غرناطة وهي آخر معقل للعرب في أسبانيا إلى جيوش الملكين الكاثوليكيين فيرديناند وايزابيلا. قام آخر سلطان عربي في غرناطة واسمه أبوعبدالله محمد السابع والمعروف في الغرب باسم / بوعبدالله/ بالتنهد تنهيدة طويلة مشهورة قبل أن يركب السفينة المتجهة إلى شمال أفريقيا متجهاً إلى منفاه في مدينة تلمسن. وبعد فترة طويلة قال : تشارل الخامس لدى دخوله لأول مرة إلى الحمراء : «إنه من سوء قدر ذاك الرجل الذي خسر ذلك الملك.

كان كولومبوس من بين الأشخاص الذين حضروا وشهدوا سقوط غرناطة. وكان عام ١٩٤٢م هو العام الذي أبحر فيه كولومبوس عبر المحيط الأطلنطي بحثاً عن طريق جديد إلى جزر لانديز. ومن بين الناس الذين رافقوه في رحلته البحرية الاستكشافية تلك كان لويس دي توريس وهو يهودي يتحدث اللغة العربية. كان المفروض بـ توريس أن يقوم بدور المترجم لدى وصول البحارة إلى أسواق الحرير والبهارات في الأنديز ذلك لأن المسلمين الذين يتحدثون اللغة العربية والفارسية كانوا قد سيطروا في أواخر القرن الثامن عشر على التجارة البحرية في المياه الآسيوية. وعندما وطأت أقدام كولومبوس اليابسة والتي كانت في الواقع أراضي كوبية والتي ظن بأنها كانت اليابان، كان نوريس يقف إلى جانبه ليخاطب سكان تلك البلاد باللغة العربية. ومثل الهجوم الذي شنه الملك فرديناند والملكة ايزابيلا ضد آخر معاقل المسلمين في أسبانيا، نظر الناس إلى كولومبوس وممولي حملته على أنهم جزء من حملة صليبية عالمية ضد الإسلام. كان كولومبوس يأمل أن من خلال عبوره المحيط الأطلنطي سيكون بمقدوره الاتصال مع زعيم المغول العظيم / خان/ واقناعه بأن يسمح للمبشرين المسيحيين بالدعوة إلى العقيدة المسيحية في الهند وبالتالي يضمن وصولاً سهلاً إلى مصادر التوابل في مناطق الشرق الأقصى من دون الحاجة للتعامل مع وسطاء من المماليك العثمانيين . قال :

«يا صاحب السمو بصفتكم أمراء كاثوليك ومسيحيين أطياب مخلصين للعقيدة المسيحية وناشرينها بين الناس ولكونكم أعداء لمحمد ولعبدة الأصنام والهراطقة فإنني أنظر إلى خطة

إرسالكم لي، أنا كريستوفر كولومبوس، لبلاد الأنديز على أنها مهمة للإطلاع على أحوال الأمراء والشعوب والبلاد وكيفية تصريفهم للأمور وبالتالي معرفة الأسلوب الذي يمكن أن ننهجه لتحويل شعوب هذه المناطق إلى عقيدتنا المسيحية المقدسة» .

جاء هذا في المجلة المخصصة لكولومبيوس كوصف للمهمة الموكلة إليه. بقي كولومبوس طيلة حياته مهووساً بفكرة استعادة القدس لأنه بذلك يحقق نبوءات مقدسة. على أية حال وبالرغم من أن فتح غرناطة جاء نصراً للصليبيين متأخراً عن موعده، فقد انقضى عصر الصليبيين ولم تحقق المحاولات الأسبانية في القرن السادس عشر الهادفة إلى إثبات وجودها في شمال أفريقيا إلا نجاحات متقطعة. كُتبت للحمراء فرصة للبقاء أفضل من بقية الحضارات الأسبانية الغربية الأخرى. وعندما استولى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا على غرناطة وعدا بأن يتسامحا مع العقيدة الإسلامية ولكن ما لم يمضي أقل من عقد من الزمن حتى قام ديتال ايمنز باقناع الملكة ايزابيلا بأن تصدر مرسوم ملكي باعطاء المسلمين خيار اعتناق المسيحية أو الرحيل عن البلاد. وعليه فقد تم إغلاق المساجد وأُضرمت النيران في أكوام من الكتب والمخطوطات العربية. وفي وقت لاحق وبالتحديد في الستينات من عام / ١٥٦٠/ سعى فيليب الثاني لفرض حظر على اللغة العربية وعلى العادات العربية وعلى الزي العربي لكن المسلمين المقيمين في منطقة البوكساراس ثاروا ضد ذلك الإجراء. وتم في عام / ١٥٧٠/ إخضاع المتمردين وقتلهم واستعبادهم وإرسال بعضاً منهم إلى المنفى. كتب / ستانلي لين بول/ المؤخر لبروتوستانتي الانثبزي في القرن التاسع عشر في أعقاب هزيمة المتمردين التالي :

«تتجلى الذكرى الحقيقية للعرب المسلمين في مناطق قفراء مهجورة حيث كان المسلمون في فترة من الفترات يزرعون كروم العنب وأشجار الزيتون والذرة الصفراء وسط أمة غبية جاهلة انتعش فيها التعلم والمعرفة وسط ركود وتردي شعب سقط من معيار الأمم واستحق الذل والهوان» .

بقيت الحمراء، جزئياً، في ظل الحكم المسيحي لأنه كان ينظر إليها على إنها نصب نصر للفتح المسيحي وقد يعود بقاءها أيضاً إلى حقيقة أن الملك فرديناند والملكة ايزابيلا كانا يتغنيان بجمال هذه القصور التي انتقلوا للعيش فيها. وكانا أيضاً على دراية بنمط وطريقة عيش العرب الفاتحين لإسبانيا لدرجة أنهما كانا في بعض الأحيان يرتديان

الملابس العربية. إن الحمراء لم تبق وتستمر في ظل إدارة الملوك الكاثوليك بل بقيت كقصر إسلامي يعود للعصور الوسطى والذي بقي جزء كبير منه حتى وقتنا الحاضر (علماً بأن المتبقي أكثر بكثير مما يبدو للوهلة الأولى). فقد بنى كل خليفة عباسي كان في بغداد في القرنين الثامن والتاسع قصراً خاصاً له وترك قصر سلفه يتحول إلى أطلال. كانت بعض هذه القصور منتشرة على نطاق واسع ولكن اليوم لايوجد أثر لها ولا تعرف عنها إلا ما هو موجود في مصادر أدبية. ظلت السامراء من عام / ٨٣٦/ وإلى / ٨٩٢/ العاصمة العباسية كما تم بناء مجموعة قصور على مساحة / ٤٠/ كيلومتر ممتدة على طول نهر دجلة ولا توجد إلا صور مع بعض الآثار التي تدل على معالم أساسات هذه القصور. ويوجد في منطقة / غزنافيد/ في أفغانستان أطلال بسيطة باقية من قصر / غزنه/ . وبالرغم من أن قصر / توب كابي/ للسلاطين العثمانيين في اسطنبول كان قد شيد في أواخر القرن الخامس عشر، إلا أن معظم ما بقي منه تم تعميره بعد القرن الخامس عشر .

يمكن في أسبانيا نفسها مشاهدة أساسات مدينة الزهراء وهي قصر أموي يعود بناؤه إلى القرن العاشر ويقع خارج قرطبة ولاتزال بعض أسواره واقفة (وهذا دليل على استمرار الآثار القديمة والتي يدل عليها شموخ في الجدران التي يراها الزائر في كل مرة يأتي إلى المكان). وعلى الرغم من محاولة بذل بعض الجهود لإقرار نوع من العلاقة الخاصة بعلم الإنسان بين قصور الحمراء ومدينة الزهراء ، إلا أنه يمكن القول أن لاعلاقة مشتركة بين أساسات هذين القصرين. إن مدينة الزهراء (التي كانت قد بُنيت في وقت كان فيه الخلافة الأموية في أسبانيا في أوج أبهتها وإشراقها) كانت بمثابة بناء يتسم بالبذخ حيث تم في بنائه الإفراط في استعمال الرخام والبرونز والفيفساء من الذهب والفضة . وكانت جدران وأسقف قاعة الاستقبال الخاصة بالخليفة مُنارة بوميض انعكاسات أضواء قادمة من بركة مملوءة بهادة الزئبق. بالمقابل فقد استكمل بهاء ورونق قصر الحمراء من مواد رخيصة .

٣- منظر جوي لقصر مدينة الزهراء الذي يعود للقرن العاشر وهو مقر إقامةالخلفاء الأمويون في قرطبة ويقع على مسافة ٥٠ كيلومترات خارج حدود تلك المدينة. مساحة القصر على سفح تلة كما أن الغرف التي يستخدمها الخليفة والغرف الأخرى التي تقام بها الاحتفالات مشادة على قمة تلك التلة وتشرف على منظر يبين باقي أجزاء القصر. اعتاد وزراء الخليفة أن يشغلوا القسم السفلي من القصر كما أن الخدم كانت في الطابق السفلي. وعلى غرار القصور الأخرى في الحمراء فإن مدينة الزهراء هي المدينة الوحيدة التي تأخذ شكل المستطيل وعلى النقيض من الحمراء أيضاً فإن القصر الأموي اعتمد على الجنود للدفاع عنه ولم يعتمد على التحصينات لذلك العرض.

ومن ناحية أخرى فقد صُممت مدينة الزهراء كوحدة متكاملة (مثل القصور الغربية - قصر ثيرساء وقصر باكنج هام) في حين كانت الحمراء قصر على شكل مدينة فيها الكثير من الأشياء المشتركة مع مدينة / سامراء/ حيث لا تشاهد فقط العديد من القصور ولكن تشاهد أيضاً المساجد والثكنات والأبنية الإدارية وميادين السباق وأماكن للمباريات. حاولت بعض المدارس الحديثة أن تعرض مجسمات الحمراء على أنها قصر إسلامي تقليدي لكن هناك شكوك كبيرة حول احتمال وجود مثل هذا الشيء في الماضي. تشبه مجمعات الحمراء من جهة معينة، المدينة الموجودة في بكين والتي يُطلق عليها اسم المدينة الممنوعة أكثر مما تشبه القصور الإسلامية في أسبانيا.

إن أسوار مجمع الحمراء تلتف حول العديد من القصور والتي قد يصل عددها إلى ستة قصور وهناك العديد من الثكنات وجامع كبير ومدينة صغيرة إضافة إلى حديقة للحيوانات ودكاكين صناعية وأقفاص كبيرة لحفظ الطيور. وكان في مدينة القصر قاضٍ خاص بها كما أن معظم الدكاكين والخدمات التي يمكن أن تقام في مدينة غرناطة كانت تقام أيضاً في مجمعات

الحمراء. تقع هذه المجمعات على مساحة تبلغ أربعة عشر فداناً ويقدر بأنها تستوعب أعداداً من الناس تصل إلى / ٤٠/ ألف شخص. لذلك فإن المصادر العربية لم تشير إلى هذه المنطقة على أنها قصر بل قالت بأنها مدينة لأن المكان كان بمثابة مدينة بحد ذاتها .

تشتق مجمعات الحمراء تسميتها من الكلمة العربية «أحمر» ويعتقد بأن هذا الإسم استُعمل بالإشارة إلى اللون الجديد أو لون صدأ الحديد التي صُبغت بها الأسوار الحجرية للقلعة التي تجثم على حافة صخرة في / سيسرا نيفادا/ . يصف / ابن بطوطة/ (الذي زار غرناطة في بداية القرن الرابع عشر) ريف تلك المنطقة على النحو التالي: «المنطقة محاطة من كافة الجوانب بالبساتين والحدائق والمروج والقصور وكروم العنب». صدر مرسوم خلال فترة حكم سلاطين عائلة «الناصريين» والذين حكموا غرناطة من عام ١٢٣٢ وحتى ١٤٩٢م يقضي بأن تكون منطقة سيرا نيفادا محمية للصيد ومغلقة بالكامل. من المحتمل أن هؤلاء السلاطين كانوا يقضون معظم أوقاتهم في الخلاء. ويمكن النظر إلى قصور الحمراء على أنها مجموعة من الفلل الريفية التي تستعمل كقاعدة لحملات الصيد والنزهات وجولات تفقد المزارع والقطعان. ومن أحد تبعيات هذه الظاهرة أن قصور الحمراء سكنها الأمراء مع خليلاتهم خلال فترات الليل ويبدو أنه تم تصميم القصور بموجب هذه الفكرة . ولكن بعد أن قام المؤلف الموسيقي / مانويل دي فالا/ بجولة حول الحمراء في عام ١٩١٩م مع عالم الموسيقى الأسباني / جي بي تريد/ (في وقت متأخر من أحد الليالي ليرى ما يصفه / فالا/ على أنه سمات قصر على مستوى حفلات الأوبرا) قال إن معظم الفن المعماري قد صُمم في الأساس لأغراض تتم في النهار ... بُنيت الحمراء ليراها الناس في الليل وقد تم الإعداد لبنائها لذلك الغرض وليس لأي غرض آخر. إن أجزاء منها (والتي تبدو عديمة المعنى في ضوء النهار) تظهر جمالها أثناء ساعات الليل. كتب / واشنطن ايرفين/ بأسلوب منمق، في كتابه «الحمراء»، عن تأثير ضوء القمر على الحمراء قائلاً: «إن كل جزء من الوقت وكل درجة لون باهته وكل تأثير لعوامل الطبيعة يختفي ليحل الرخام محله ببياضه الطبيعي كما أن صفوف الأعمدة الطويلة تشع تحت ضوء القمر والقاعات تُضاء بإشعاعات لطيفة بحيث يذكرنا صرح

المكان بالقصر المسحور في قصة عربية» .

إن القصيدة الشعرية التي كتبها الوزير وشاعر القرن الرابع عشر / ابن زمرك/ والمنقوشة على قاعدة أعمدة قاعة الشقيقتين والتي تشيد بأمجاد تلك القاعة، تعرض مناظرته على النحو التالي :

«وكم من الأقواس تتشامخ مدعومة بأعمدة تظهر زخرفتها في أوقات الليل ! قد يتراءا لك في الليل أنها أجرام سماوية تدور في أفلاكها وتلقي بظلالها على أعمدة الفجر وهي بالكاد تظهر بعد ليلها الطويل».

تدل قصص بقاء واستمرارية مجمعات الحمراء على أن الأمراء المسلمين في العصور الوسطى أنفقوا مبالغ طائلة ثمناً لشموع عملاقة - وهذه خاصية تميزت بها دمشق في العصور الوسطى. يبدو أن قصور الحمراء كانت تضاء من الأسفل. وفي سياق كتاباته عن الاحتفالات التي أقيمت في عام / ١٣٦٢/ بمناسبة عيد المولد النبوي، أشار / ابن الخطيب/ (أحد وزراء أسرة الناصريين والذي كان أيضاً يشغل منصب شاعر البلاط) إلى الشموع المغروسة في حاملات مصنوعة من البرونز والزجاج والمرتكزة على قاعدة عريضة إضافة إلى العديد من الشموع المتدلاة من الأسقف. ولا توجد مصابيح متدلاة من الأسقف إلا في المسجد الكبير. إن النتوء الصخري الذي يطل على مدينة غرناطة هو مكان طبيعي لبناء قلعة من ذلك النوع. فمنذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم والجهات الرسمية تعمل على تعزيز وتدعيم الزاوية الغربية من ذلك النتوء الصخري. إن القلعة العربية التي لازالت باقية هناك بُنيت على أساسات قديمة بجهود محمد الأول مؤسس الأسرة الحاكمة الناصرية والذي يُعرف أيضاً باسم «الأحمر» (١٢٣٢-١٢٧٣). ضم الموقع العسكري لهذه القلعة مكانا للاستعراض العسكري وممرات وزنزانة سجن تحت الأرض. كما أن الأمير في عام ١٢٣٨ سوّر ذلك النتوء الصخري بأسوار وحفر حوله قناة مائية. وبعد التأكد من أن إمدادات الماء قد وصلت يمكن الاطمئنان على سلامة القلعة وتصبح مكاناً مختلفاً تماماً عن باقي القصور والثكنات والمساجد وتتحول إلى دكاكين وورش عمل وأماكن يسكنها القائمين على الخدمة الملكية. كانت معظم الدكاكين والناس البسطاء موجودون في المنطقة العليا الواقعة شرق القصور الملكية. ضمت تلك المنطقة أيضاً مدبغة للجلود وحمامات عامة يغتسل بها الناس إضافة إلى مكان لصنع

الأواني الفخارية وأتون أو تنور لصنع الزجاج ودكاكين أخرى. وفي هذه المنطقة الحرفية ثلاثة شوارع رئيسية هي : كالي ريال باجا وكالي ريال التا وكالي دي روندا .

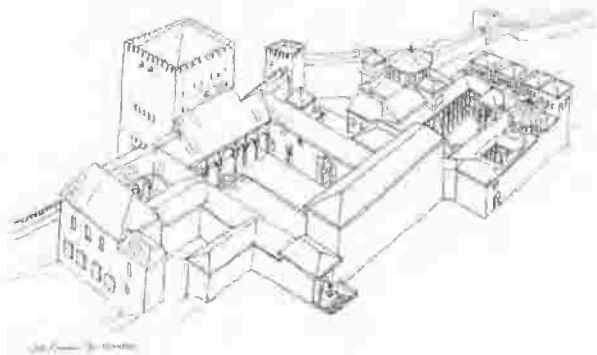

٤- يُظهر هذا الرسم الثلاثي الأبعاد صورة واضحة جداً للطريقة الخاطئة التي تربط مجمع الساحتين الرئيسيتين مع بعضهما البعض وهي ساحة نبات الآس العطري وساحة الأسود. تبدو قاعة نبات الآس العطري في المقدمة وخلفها مباشرة وإلى اليمين تبدو قاعة الأسود. والجدير بالذكر أن هاتين الساحتين كانتا أصلاً منفصلتان عن بعضهما البعض .

القصر وبرتال و Mexuar وجناح ادوارد وقاعة نبات الآس العطري

إن القصر هو الجزء الأقدم المتبقي من مجمع الحمراء. ولا تزال منه سوى أساسات متفرقة تدل على أنه في فترة من الفترات كان موجوداً في الجهة الشرقية من المجمع الرئيسي للقصور وللمسجد الكبير والذي من المحتمل أن يكون محمد الثاني (١٢٧٣م -١٣٠٢م) هو الشخص الذي بناه وأعاد بناء معظمه محمد الخامس في الفترات ما بين (١٣٥٤م-١٣٥٩م) و (١٣١٢م-١٣٩١م).

يبدو أن هذا المكان يحتوي على صفوف من الأعمدة الكبيرة وساحة تمر في وسطها قناة ماء طويلة. على أية حال، فقد تم هدمها بعد عام ١٤٩٢ ليُشاد مكانها «دير راهبات سان فرانسيسكو» والذي تحول بدوره إلى بارادور (بالأسبانية) يُدار من قبل الدولة. وهناك أساسات دلت عليها أعمال التنقيب عن الآثار ويعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر أو بدايات القرن الرابع عشر وبالتحديد تدل على قصر / ابن سراج/ في الجانب

الجنوبي من تخوم الحمراء. يبدو أنه كان في ذلك القصر بركة كبيرة وفناء أو باحة مركزية. وعندما احتل الفرنسيون الحمراء خلال حرب شبه الجزيرة قاموا بتفجير المكان كما تم تدمير الجزء الأكبر المتبقي منه في عام ١٩٥٧م وتحول المكان إلى موقف للسيارات .

إن القصر الأقدم والذي لايزال واقفاً ولو بشكل جزئي هو مقر برتال والذي بناه محمد الثالث في الفترة (١٣٠٢م-١٣٠٩م) ويقع هذا القصر إلى الشرق من قاعة الأسود وكان يفصله عنها (في العصور الوسطى) شوارع مزدحمة بالناس. ويُعرف القسم المتبقي من قصر بارتال باسم توري دي لاس واماس (أي برج السيدات) . ومن المحتمل أنه كان مقابل هذا البناء بناء مماثل موجود في الجهة المقابلة لبركة الماء مماثلاً لقاعة نبات الآس العطري الموجودة في قصر كوماريس - بالرغم من عدم وجود آثار تاريخية تدل على ذلك .

إن معظم الرسومات والزخرفات التي كانت موجودة في الرواق قد بهتت ولم يعد بالإمكان قراءتها. كان رواق هذه الشرفة في الأصل مقاماً على أعمدة مربعة لكن في القرن العشرين أزيلت هذه الأعمدة ووضع مكانها أعمدة مستديرة من دون سبب يذكر . إن عالم الآثار المسؤول عن هذا التخبط ويدعى ليوبولدو توريس بلباس (١٨٨٨-١٩٦٠) اتخذ قراراً جريئاً خاطئاً مشابه لقرار إزالة الأعمدة ويتعلق بإعادة ترميم مناطق أخرى من مجمع الحمراء بما فيها قاعة الأسود وحدائق القصور. يستحق عالم الأثر هذا أن يُطلق عليه اسم مهندس قصور الحمراء في وضعها الحالي هذه الأيام، ففي نهاية القرن التاسع عشر تم بيع «برج السيدات» إلى شخص حوله إلى منزل للسكن الأمر الذي أسفر عن تدمير الكثير من رسوماته وزخرفاته. ومع مرور الوقت قام أحد رجال المصارف ويدعى اريتورو غوينار دريس بشراء قصر بارتال. وبالرغم من أن هذا الأخير باع القصر ثانية إلى الحاكم الأسباني إلا أنه احتفظ بزخارف البرج والتي انتهى بها المطاف في عام ١٩٧٨م في متحف فيرا سلاميك كونست الموجود في برلين. وعلى نطاق أصغر من ذلك بكثير، كان السواح الذين زارو المكان في القرن التاسع عشر يحبون كسر أجزاء من بلاط الحمراء وكسر أجزاء من زخارفه الجصية ويأخذونها كذكرى عن زيارتهم للمكان. جاء في كتاب موريه المنشور بعنوان «دليل إلى أسبانيا» (١٩١٢م)

التالي : مهما قلنا عن أعمال التخريب لا يمكن أن نبالغ بأعمال التخريب والعادات المقرفة التي تجسدت في حفر الأسماء وتمزيق قطع من اللوحات وأجزاء من البلاط الموجودة في مجمع الحمراء. ومع ذلك فإن ما تحتويه مؤسسات مثل المتحف البريطاني قد لاتكون قيمة من دون هذا القص والتمزيق الذي قام به هؤلاء السائحون. إن واقية الصندوق ونبات اللبلاب في حديقة قصر بارتال ما هي إلا مفارقه تاريخية تماماً كما هي كافة حدائق مجمعات الحمراء بكل تفاصيلها بالرغم من أن النظر إليها يسر الخاطر.

والقصر الثاني القديم الذي لايزال موجوداً هو قاعة نبات الآس العطري «Nyrtles» والمعروف أيضاً باسم قصر كاميريس. إن نباتات الآس العطري موجودة على طول البركة والتي تمثل السمه الرئيسية للقصر. ولا أحد يعرف على وجه الدقة ما هو أصل تسمية "كاميريس".

٥- بالعودة تاريخياً إلى بداية القرن الرابع عشر يمكن القول أن مقر بارتال يتألف من برج وشرفة وبركة. إن هذا القصر هو بالواقع مبنى يطل على منظر رائع ويشرف على مناظر آسره للجبال الواقعة إلى الشمال وله حدائق في الجزء الجنوبي . إن انعكاس الماء يعزز من سحر الهندسة المعمارية لمجمعات الحمراء .

وفقاً لبعض الجهات الرسمية فإن الكلمة مشتقة من كلمة «القيمرية» وهي كلمة عربية تعني الزجاج المطلي بألوان متعددة (شبيهه بأنواع الزجاج الموجودة في شرفة قاعة السفراء). على أية حال لم أجد هذه الكلمة في أي من القواميس العربية الموجودة في

حوزتي . إن جذر كلمة «قمر» العربية يولد كلمات ذات صلة بالقمر ولعب القمار علماً بأن اسم «قمر» للفتاة يعني بيضاء مثل الثلج. و«قمر الدين» هو نوع من المربى المصنوع من المشمش - والقمري نوع من الحمام وكلمة قمره تشير إلى اللون الذي يميل إلى الاخضرار . ولعل كلمة «القمرية» تدل على منظر القصر في ضوء القمر والذي يعجب به الزوار. ويقول / جيس دكي/ وهو مرجع موثوق به في شؤون مجمع الحمراء إن كلمة قماريش هي اسم قصر في شمال أفريقيا ويشير إلى العمال المهرة الذين عملوا على بنائه. إن عدم التأكد من مصدر هذه الكلمة هو أمر مألوف . وكما سنرى لاحقاً هناك شكوك وجدل يتعلق بكل سمة من سمات الحمراء : مثل هندسته ، تسلسل أحداثه التاريخية ، صوره التاريخية تعدد ثقافاته والطريقة التي أصلاً سُكن بها. إننا لا نتعامل مع مجموعة من المعارف والمعلومات بقدر ما نتعامل مع مجموعة من التخمينات الجامحة. أشار / ابن الخطيب/ في القرن الرابع عشر إلى قصر كوماريس بقوله إنه قصر السلطان لكن هناك أسماء مختلفة تفسد وتشوش دراسة مجمع الحمراء - مثل أسماء انكليزية وأسبانية وعربية - وهي تُطلق على أجزاء مختلفة من القصور وأن الكثير منها وهمي وخيالي .

بدأ حاكم غرناطة إسماعيل الأول من عائلة الناصريين ببناء قصر كوماريس (١٣١٤-١٣٢٥) وأكمل البناء يوسف الأول (١٣٣٣-١٣٥٤) علماً بأنه أُغتيل قبل أن ينتهي من بناء القصر. لذلك قام محمد الخامس وأنهى بناء القصر في عام ١٣٧٠م. إن الساحة الموجودة أصلاً هناك والتي من خلالها يتم الدخول إلى القصر قد هُدمت ولم يبق إلا جزء بسيط من الساحة الثانية المعروفة باسم ساحة ماشوكا. واليوم يدخل الناس إلى القصر أو إلى المجلس من ساحة كاشوكا ولكنها ليست مدخل Mexuar الأصلي. أشاد هذا البناء في البداية يوسف الأول ولكن هُدم معظمه لكن قام محمد الخامس في عام ١٣٦٢م بإعادة بنائه. هناك قصيدة معاصرة للشاعر ابن الخطيب تصف حفله يُزعم بأنها أُقيمت هناك تكريماً لمولد النبي ولكن كانت الغاية في حقيقة الأمر التباهي بجمال البناء .

إن بناء Mexuar لشبيه ببلطة جورج واشنطن الأسطورية التي لاتزال موجودة

في أحد المتاحف الأميريكية. وبالرغم من أن النصف المصنوع من الخشب قد تعفن واستبدل بجزء جديد كما أن الجزء المعدني من البلطه أصابه الصدأ واستبدل بجزء آخر وهو لايزال معروضاً لمجرد أن جورج واشنطن استعمله. أما Mexuar والذي كان في فترة من الفترات غرفة لمجلس شورى إسلامي تحول إلى كنيسة كاثوليكية والآن هي ليست غرفة لمجلس شورى إسلامي ولا كنيسة كاثوليكية. إن الباب لم يعد الباب الأصلي (ولانعرف حتى أين كان ذلك الباب) لكن لاسقف وبلاط الجدران هي في مجملها من بلاط الحقبة التي تلت فترة أسرة الناصريين. لقد تم توسيع الغرفة باتجاه الشمال كما تم تعزيز وتدعيم الحائط الغربي وتمت أيضاً إضافة بعض النوافذ. كان في الغرفة أصلاً مشكاة أو منور في السقف تدعمه أربعة أعمدة خشبية - وكانت الغاية منها إدخال النور أثناء النهار. هذا وتم تخفيض مستوى أرضية الغرفة في فترة ما بعد عام ١٤٩٢م وذلك لتجنب احتمال وقوع الزوار من خارج النوافذ. هذا وتم إضافة شرفة للترانيم وذلك عندما استُخدم المكان ككنيسة كاثوليكية ولكن هُدم جزء منها في وقت لاحق؟ وفي العشرينات من عام ١٥٢٠م قام تشارز الخامس بتزيين أحد الجدران ببلاط يجسد شعاره وهو "أعمدة هرقل" وكتب تحته "أبعد من القدرة الممكنة" لكن تلك اللوحة من مجموع البلاطات نقلت من مكانها الأصلي إلى قاعة أخرى وتم الاحتفاظ بالأجزاء الرئيسية للأعمدة التي تدعم السقف في عام ١٩٩٠م . أما غرف المصلى الموصولة بقاعة Mexuar فقد هدمت في عام ١٥٩٠م بسبب انفجار كمية من البارود. وبالرغم من أنه تم إعادة بنائها إلا أن أعمال الترميم دلت على مفارقات تاريخية. فالبرغم من كل هذه الأمور فلا يزال Mexuar كما تركته الأسرة الحاكمة وبمثابة مكان ينعم فيه الزوار. لكن الطريقة التي تمت فيها أعمال ترميم هذا المكان Mexuar تعرضت للكثير من الانتقاد وهذا ينطبق أيضاً على الموقع برمته. حاول المهندسون وعلماء الآثار الجريئيين أن يعوضوا عن الأجزاء التي سُرقت أو بُهتت. وارتكزت أعمال الترميم التي قاموا بها على مبادرات وتحيزات عرقية عكست ذوق العصر الذي يعيشون فيه. فعلى سبيل المثال قام / رفائيل كونريراس/ في عام ١٨٥٨م (وهو مهندس معماري عين لترميم القصور)

بتزيين وزخرفة الحجرة الشرقية من قاعة الأسود باستعمال البلاط وأضاف إليها قبة ليضفي عليها الشكل الفارسي وهو الشكل الذي يجب أن تكون عليه وفقاً لزعمه. وفي عام ١٩٣٤م حاول / توبيس بل ياس/ أن يصحح الأمور ولكن ذلك زاد الأمر سوء إذ أن السطح الذي وضعه كان مائلاً جداً ومرتفعاً جداً أيضاً. وغالباً ما كانت الأجيال اللاحقة من خبراء الترميم تهدم الأعمال التي تُنفذ بود ومحبة. مجمع الحمراء ليس مجرد نصب تذكاري محدد مع مرور الوقت فهو يتعرض إلى أعمال ترميم وإلى بناء وإعادة بناء باستمرار. في آخر زيارة قمت بها لمجمع الحمراء وكانت في ربيع عام ٢٠٠٢م شاهدت أن أعمال الترميم آنذاك اشتملت على إعادة بناء زاوية قاعة نباتات الآس العطري وشملت أيضاً طلاء سقف قاعة الملوك (سالا دي لوس ريز) وترميم كافة شرفة / دي لا اسيكويا إضافة إلى أعمال حفر كانت تجري في موقع أطلال ابن سراج/ . وكانت هناك أعمال في مخدع السيدة أو حجرة لباسها والتي كانت اسمها برج أبوالجيوش قبل أن تستعملها زوجة الملك شارل الخامس ايزابيل .

٦- هذه صورة قديمة تُظهر القبة الفارسية الزائفة والفتحات التي أضافها المهندس المعماري ذو المخيلة الواسعة رافائيل كونتريراس إلى الجناح الشرقي في قاعة الأسود في عام ١٨٥٨م . إن القبة التي أتى بها كونتريراس لا تتفق مع الشكل الهندسي المعماري للعرب المسلمين الذين فتحوا الأندلس علاوة على أنها لا تبدو أيضاً من الطراز الهندسي الفارسي الأصيل. في عام ١٩٣٤م قام مهندس آخر (يعمل في مجال ترميم الأبنية التاريخية وهو حريص جداً في اتباع الأوامر والشكليات) بإزالة هذه القبة ذات المفارقة التاريخية .

تم أيضاً ترميم إحدى غرف قاعة الأسود وتم إغلاق الكنيسة الموجودة بالقرب من مسجد أسرة الناصريين. إن الشكل الذي تبدو عليه مجمعات الحمراء اليوم يدل على المهارة المعمارية الحديثة وليس على مهارة البنائين في العصور الوسطى .

إن غرف وممرات قصور مجمع الحمراء عارية وليس فيها أية مفروشات وهذا ما يسارع من تجول السائحين لكن لم يكن الأمر على هذا النحو من قبل. كانت قصور العصور الوسطى مزودة بالمفروشات على نحو مُسرف حيث كان فيها السجاد والمساند والستائر. إن الشرح والوصف الوارد في كتاب الليالي العربية يدل على وجود أماكن متفرقة ويدل على أن الستائر كانت معلقة فوق مداخل الممرات وفوق كل بهو وكانت السجادات تتدلى من النوافذ تماماً كما كانت الحالة في عصر النهضة في فينيسيا والتي دل على وجودها لوحات / كارباثيو/ . وكان السجاد يشكل جزءاً ضرورياً من معدات النزهات وكانت تُفرش باستمرار في الحدائق. إن معظم أعمال قاعة «الناصريين» كانت تتم جلوساً على سجادات ومساند في الأرض فكان لابد للزوار أن يجلسوا على الأرض ليشاهدوا الأبنية من منظور المسلمين العرب الذين فتحوا الاندلس. إن مستوى الأرضية التي حبذها المسلمون العرب تدل على سبب جعل النوافذ عند مستويات منخفضة من الجدران. لعبت المفروشات المتحركة إضافة إلى نوع الأقمشة دوراً هاماً في تحديد المهام التي كانت تتم في غرف معينة. بالنسبة للأمراء فقد كان من المألوف جداً أن يعينوا مشرفاً على القماش يقال له «صاحب الستار» ومهمته تحديد أماكن وضع هذا الأقمشة. إن مجمعات الحمراء تدل على مثال صارخ على ما اطلعت عليه / ليزا غولومبيك/ اسم «عالم الستائر الإسلامية». عندما تغنى / ابن الخطيب/ جذلاً بالأنشطة والاحتفالات التي حدثت في عام ١٣٦٢م أبرز / وعلى وجه التحديد/ قماش الحرير الذي كان يُفرش في «Mexuar» . كتب / ابن زمرق/ (الذي جاء خلفاً لابن الخطيب/ وأصبح وزيراً ومادحاً للبلاط الملكي) في قصيدته الخاصة بقاعة الاسود : يا للستائر التي زينت تلك القاعة والتي حملتنا ألوانها وتطريزها على نسيان قماش البروكارد اليمني" يُقال إن محلات ومتاجر ملكية داخل مجمعات الحمراء كانت تعمل على إنتاج الحرير والقماش

الصوفي. وإن كميات كبيرة من الأقمشة التي زينت مجمعات الحمراء لازالت موجودة حتى يومنا هذا وبعضها يحمل شعار سلاطنة "أسرة الناصريين" وهو "لا إله إلا الله". إن الحرير الأسباني هو من بين الأمثلة الرائعة التي تدل على الفن الإسلامي. وبالرغم من أن الأقمشة الأسبانية التي كانت موجودة قبل سلاطين "الأسرة الناصرية" اشتملت على أشكال مجازية، إلا أن الحرير الذي صنعه السلاطين ارتكز على رسومات وزخارف هندسية صارمة متزمته وبهذا فهي توافقت مع أساليب الزخرفة والزينة التي ظهرت في كافة أرجاء مجمعات الحمراء. تم تصميم الصور والرسومات التي كانت تُعلق على الجدران بطريقة تشبه ألواح الزخرفة الجصية والعكس صحيح. وغالباً ما تتفق أعمال الزخرفة الجصية مع الموسيقى المتعددة الأصوات للتشابك الزخرفي كما أن الأشرطة عُملت بطريقة متشابكة من الأعلى والأسفل لتغطي كافة مساحة الجدار. إن الجزء الأكبر من أعمال الزينة والزخرفة هذه وبشكل خاص الموجودة في قاعة كوارتو دورادو وقاعة الأسود تبدو وكأنها تؤكد على تأثير الوزن الخفيف وهي شاهد على استعادة ذكريات من مخزون أعمال الزينة والزركشة. إن الأنماط الهندسية لبعض هذه الستائر هي نُسخ مقلدة لبواب القصر. على المرء أن يتخيل سجاد وحرير ملون بشكل رائع ينسجم مع أعمال جصية ملونة وأعمال زخرفية خشبية أخرى رائعة. وأخيراً تجدر الإشارة هنا أنه عندما قام الشعراء والكتاب العرب بالكتابة عن زخرفة وزينة البناء (من رخام وبلاط وحجارة ونقوش جصية) فإنهم كتبوا عن هذه الزخرفة بشكل مجازي وكأنها دثار لتلك الأبنية. إن المخطوطات المزكرشة على الجدران تشير إلى طراز معين يدل على فئة معينة من أعمال التطريز على الأقمشة والملابس وبشكل خاص ما يتم ارتداءه في القاعات والمحاكم. كان شائعاً بين الشعراء مقارنة القصور المزركشة بإسهاب بالعروس التي تم تجهيزها وتجميلها للذهاب إلى عريسها. هناك نقش في "غرفة القارب" يقول "الحمد لله رب العالمين". إن ملابسي وحُلي تبهر كل من أنعم الله عليهم بالجمال ...".

من الواضح أن Mexuar القرن الرابع عشر كان أصفر وأكثر ظلمة مما يبدو عليه الآن. وبشكل عام نلاحظ أن القصر لايحتوي على مساحة للاحتفالات الكبيرة كما أن

ليس به مجاز ضيق كما هو موجود في قصر الفيرساي. لقد صممت القصور الإسلامية لتسعد ساكنيها بدلاً من أن تُرهب رعية الحاكم. إن مثل هذا التفاخر والتباهي الموجود في الحمراء كان من قبيل التقليد المتدرج ويزداد ظهوره مع الانتقال Mexuar إلى قاعة كوارتو دورادو ومن ثم إلى الغرفة الذهبية. كانت الغرفة الذهبية تستعمل للراحة قبل الدخول إلى قصر كوماريس وكانت هي المكان الذي يحتوي على كرسي فخم يجلس عليه الملك وهو موجود بين بابين في الحائط الجنوبي ليستمع إلى شكاوي عامة الناس. كان ذلك هو المكان الذي جلس فيه الحاكم والذي تمت الإشارة إليه في الآية القرآنية المنقوشة على ذلك الجدار: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ البقرة، الآية رقم ٢: ٢٥٥.

من المحتمل أيضاً أن الحائط الجنوبي كان واجهة قصر كوماريس. إن واجهة المبنى هذه مزركشة بشكل رائع وفيها الكثير من الزخرفة الجصية ومع ذلك فإن تلك البهرجة (إضافة إلى قاعة كوارتو دورادو) ما هي إلا تقليد متدرج. إن الملفت للنظر هو تفاصيل الزخرفة التي تدل على اللاتناهي وليس المساحة التي تغطيها. إن الزخرفة الموجودة على الجزء الأسفل هي من الأعمال التي قام بها المرممون المعاصرون. مع بداية القرن التاسع عشر انهارت الأعمال الزخرفية المصنوعة من الجص كاشفة عن الحجارة الكامنة تحتها. في الوقت الذي يؤدي فيه أحد البابين إلى قصر / كوماريس/ ، نجد أن الباب الثاني يؤدي إلى القاعة الأمامية للقصر. يقول / ديكي/ إن الباب الثاني هذا لم يؤد أصلاً إلى أي مكان وكانت الغاية منه إرباك أي شخص يحاول اغتيال الملك. لايبدو هذا الطرح وارداً ولابد وأن يكون مثل هذا الشخص غبياً جداً ليصاب بالذهول والحيرة على ذلك النحو (وتقول رواية أخرى عن تاريخ الأسرة الحاكمة "الناصريين" أن القاتل عادة يتمكن من ضحيته). من المرجح أن التساوق والتماثل أدى إلى وجود بابين احتياطيين في الجدار. وكما هي حالة Mexuar ، فقد تم ترميم قاعة كوارتو دورادو بالكامل (قام فرديناد وايزابيلا بهدم الطابق العلوي من الغرفة الذهبية). على أية حال، فإن أعمال الترميم التي حدثت على هذا الجزء هي أقل جدلاً من الأعمال الأخرى. وصف / واشنطن ايرفنج/ في روايته بعنوان "قصص

من الحمراء" (وهو كاتب من القرن التاسع عشر سأسرد المزيد عنه في الفصل الرابع) الممر الواصل بين كوارتو دورادوا وقاعة نبات الآس العطري بالعبارة التالية :

كان الانتقال من طريق إلى آخر انتقالاً سحريًا تقريباً وبدا الأمر وكأننا انتقلنا في الحال إلى أزمنة أخرى وإلى عالم آخر وكأننا كنا نتبادل مشاهد من قصة خيالية عربية. وجدنا أنفسنا وسط قاعة كبيرة أرضيتها مغطاة بالرخام أو المرمر الأبيض وأطرافها مزينة بزركشة خفيفة من الطراز العربي الإسلامي وكان في وسطها حوض كبير فيه بركة سمك يبلغ طولها ١٣٠م قدم وعمقها ثلاثون قدماً مملوءة بالسمك الذهبي ومحاطة بشجيرات من الورود. وعند الطرف العلوي من القاعة كان يقف برج كوماريس العظيم .

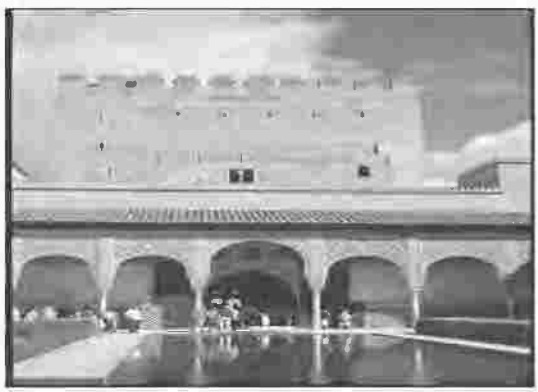

٧– هذه صورة قاعة نبات الآس العطري بإطلالتها الشمالية نحو برج كوماريس ونحو قاعة السفراء. إن نباتات الآس العطري المزروعة أصلاً حول البركة قد تكون غاصت في الماء لتعطي منظراً واضحاً للماء من كلا الجانبين .

بالرغم من أن يوسف الأول هو الذي بنى قاعة الآس العطري إلا أن معظم ما بقي منها الآن هو من أعمال محمد الخامس (وطبعاً من البنائين الذين أتو في مرحلة لاحقة والمخربون وخبراء الترميم). في الطرف الشمالي يشمخ برج كوماريس مطلاً على فناء القصر وعلى بركة الماء. أما الشرفة في الطرف الشمالي فتهجع في ظل قصر تشارلز الخامس الذي هو بمثابة نصب تذكاري يعود إلى عصر النهضة وقد أُلحق بالقصر مؤخراً.

وفي كل واحد من الجانبين الشرقي والغربي خمسة أبواب تؤدي ممراتها إلى غرف صغيرة عارية عن الزينة تقريباً. ويوجد في وسط الساحة بركة طويلة تحفها من الجانبين نباتات الآس العطرية. كانت الحديقة (قبل أن يجري عليها رفائيل كونتريراس أعمال الترميم في بداية القرن التاسع عشر) معبده برخام شواهد القبور التي سُرقت من مقابر المسلمين. إن أشجار الورود التي تدل على مفارقات تاريخية والتي وردت في كتابات واشنطن ايرفينج في أوائل القرن التاسع عشر قد أزيلت أيضاً. لكن نباتات الآس العطري كانت موجودة بالفعل في الحديقة الأهلية إلى جانب أشجار البرتقال وذلك بشهادة سفير البندقية اندريا تافا غبيرو الذي قام بجولة في الحمراء في بداية القرن السادس عشر.

أمضى ابن خلدون (الفيلسوف والمؤخر العظيم من بلاد شمال أفريقيا) الفترة ما بين ١٣٦٣م وحتى ١٣٦٥ في غرناطة حيث انطلق منها في مهمة كلفه بها محمد الخامس كما أبقى على علاقة صداقة مع ابن الخطيب لكنها متوترة بعض الشيء. وفي الجزء الأخير من تحفته الفنية حول فلسفة التاريخ والتي تحمل عنوان «مقدمة ابن خلدون» ، كتب ابن خلدون عن أشجار البرتقال كإشارة إلى التردي الإجتماعي حيث قال: «هذا هو معنى العبارة التي يقولها أناس مطلعون والتي مفادها إذا زرع الناس الكثير من أشجار البرتقال في بلدتهم فهذا يجلب لها الدمار. واستدرك ابن خلدون قائلاً أن ذلك لايعني أن أشجار البرتقال هي نذر شؤم أو أي شيء من ذلك القبيل بل إنها مثل أشجار السرو مؤثر على ثقافة أهل البلد والمقيمين غير المهاجرين. إن أشجاراً مثل أشجار السرو لا تُنتج الثمار لكن الناس يزرعونها فقط من أجل منظرها. إنها مؤشر على تنوع الرفاهية التي هي من سمات الأسر الحاكمة أو من سمات العرق الذي استوطن في البلاد .

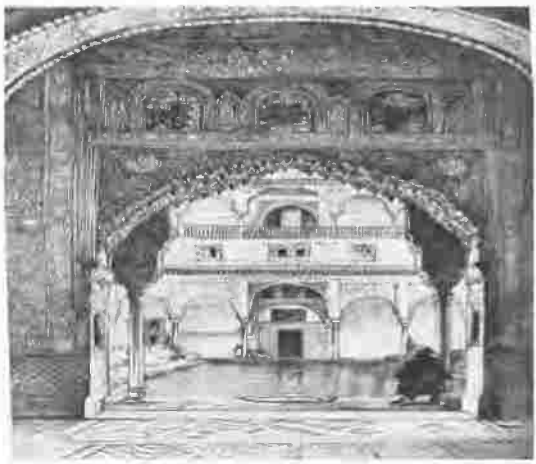

٨- قاعة نبات الآس العطري من الواجهة الجنوبية كما يسمها فنان القرن التاسع عشر جان تريديك لويس. يُشرف قصر تشارلز الخامس على الطرف الجنوبي من هذه القاعة - لكنه لا يظهر في هذه الصورة.

وبعد أن يتمكن الحكام من تثبيت سلطانهم يسترخون ويزرعون الحدائق ويستمتعون في الحياه. على أية حال يمكن للمرء أن يتأكد أنه خلال ثلاثة أجيال على أقصى تقدير سيكونون قد خسروا كل ما تمكن أسلافهم من فتحه وضمه ملكهم.

إن تأملات ابن خلدون بأشجار البرتقال لم تكن سوى جزء بسيط من فلسفته للتاريخ والتي تناولت دورة صعود وسقوط الأسر الحاكمة ودور البدو الرحل كعناصر عنيفة كان لها دور في التغيير. عندما وصف ابن خلدون البرتقال على أنه لا يؤكل فلم يكن مولع أو مهووس في الطعام بل كانت يكتب عن برتقال منطقة سيقابل والذي يتميز في الحقيقة بطعمه المر والذي كان يُستعمل كعنصر أسيدي حامض في الطعام. أما البرتقال الحلو فكان منشأه في الشرق الأقصى وجُلب إلى أوروبا والشرق الأوسط من قبل البرتغاليين في القرن السادس عشر. ولعله تجدر الاشارة هنا إلى أن / ديك ايفيسي/ الشاعر والمستعرب كان قد قرأ ما كتبه ابن خلدون حول هذا الموضوع واستلهم من تلك القراءة فكرة كتابة قصيدة شعرية بعنوان «مدينة أشجار البرتقال» والتي بدأها على النحو التالي :

ضاعت المدينة المملوءة بأشجار البرتقال
والتي كانت ترمز إلى كل أشكال الرفاهية
المنافيه للذوق السليم
والعقاب الهدام الذي تكهن به العرافون

بالرغم من أن / ايرفينج/ يقول أنه سبح في بركة قاعة نبات الآس العطري إلا أنه لا توجد أدله تشير إلى أن المسلمين في العصور الوسطى كانوا يقومون بنشاطات من ذلك النوع. قام الأمير وليد ذو الحظ العاثر ببناء القصر الصحراوي في منطقة خربة الغجر في وادي الأردن في القرن الثامن والذي شمل على غرفة كبيرة للموسيقى فيها بركة للسباحة. وفي الغرفة المجاورة لها بنى الوليد بركة صغيرة ملأها بالنبيذ وكان يغطس فيها والمغنيات ينشدن له الأهازيج وأعذب الألحان. كان / بابور/ في القرن السادس عشر / وهو مؤسس الأسرة الحاكمة الماغولية/ يستمتع في السباحة في نهر الغانج وفي أنهار أخرى في الهند وفي بعض الأحيان كان يقوم بذلك وهو سكران أو تحت تأثيرات نبات / الميراوانا/ . وخلاف ذلك فليس من المعروف عن القادة المسلمين أنهم كانوا يزالون السباحة بقصد المتعة في العصور الوسطى. وبالرغم من أن الحمامات كانت سمة مهمة من سمات القصور الإسلامية وكانت تستعمل للوضوء والطهارة والاغتسال لكن المسلمين لم يحبذوا الاغتسال بطريقة الجلوس في برك الماء. يقولون ما فائدة الاغتسال في نفس ماء الجسد الوسخ؟ وكما سنرى لاحقاً، فعندما قرر تشارلز أن يعيش في الحمراء أمر بتعديل واحداً من الحمامات بحيث يكون فيه بركة للاغتسال على الطريقة الغربية .

وبعد أن شرح ايرفينج الوضع في قاعة نبات الآس العطري ، استطرد في الحديث عن القصص الخيالية التي حدثت في أوقات أخرى والمتعلقة بالسلاطين والوزراء والأميرات والمنجمين والعشاق. إن الإشارة إلى الأعمال الهندسية وبشكل خاص هندسة الأطلال كنقطة ارتكاز للتأمل في الجانب الخلقي وسرعة زوال الأشياء وقصص الماضي الغامضة تشكل أرضية مشتركة للأدب ولكتابة القصص الشعبية. كتب المؤرخ جي ام تريتيرليان في سيرته الذاتية عن القصص الرومانسية في الأزمان الغابره يقول :

يكمن شعر التاريخ في الحقيقة الشبيهة بالمعجزات والتي (في فترة من الفترات وعلى هذه الأرض وفي هذه البقعة المألوفة) سار عليها رجال ونساء حقيقيون مثل حقيقتنا حالياً يفكرون بأفكارهم ويتأثرون بعواطفهم - لكنهم الآن قد رحلوا جيل بعد جيل ورحلوا تماماً كما سنرحل عما قريب مثل جيل أشباح رحل عند الفجر حيث تصيح الديكة .

إن هذا ضرب من البلاغة، ولكن فيما يتعلق بمجمع الحمراء فتوجد بعض من القبات التي تحول دون استحضار أشباح الناس الذي عاشوا في تلك الأماكن. وإذا وقف المرء في قاعة نبات الآس العطري وتأمل في انعكاسات الأبنية التي تتماوج على سطح مياه البركة الطويلة فقد يتوهم بأنه يقف في قصر يعود للعصور الوسطى الذي قاوم ضراوة الأيام ويتوهم أيضاً بأن الحياة ستدب في القصر بأي لحظة حيث الخدم والحراس والنساء المحجبات كل يقوم بعمله. لكن كل ذلك مجرد توهم. وكما هي الحال في قاعة Mexuar فإن ما يراه المرء في هذه الأيام ليس بالضبط ما كان موجوداً في الماضي. بالرغم من أن شجيرات الآس العطري موجودة على جانبي مجرى الماء وهي حقيقية فقد تكون أحواض هذه النباتات قد انخفضت لمسافة متر واحد كي لاتحجب منظر الماء عن عيون الناظرين. ويقول / أندريا شاقا غييروا/ (وهو من فينيسيا) إن المساحة المحيطة بالبركة كانت في بداية القرن السادس عشر مرصوفة بالرخام الأبيض كما كان في الساحة أيضاً الكثير من أشجار البرتقال. وهذا ولم تكن في برج كوماريس الموجود في الجانب الشمالي من الساحة فتحات أو أبراج زيتية كما أن الشرفة الجنوبية لم تطل على قصر تشارلز الخامس أصلاً. (بدأ العمل في بنائها الحالي في العشرينات من عام ١٥٢٠)، ويجب أن لا ننسى أن المنظر الحالي الكالح بعض الشيء لمجمع قصر كوماريس مضلل بعض الشيء لأن هذا القصر والقصور الأخرى كانت مفروشة بأنواع شتى من القماش. تقع سالادي لاياركا في الجهة الشمالية من قصر نبات الأس العطري وبالتحديد خلف الشرفة وفيها طريق يؤدي إلى قاعة السفراء . تشير معظم الكتب الإرشادية إلى أن هذا الاسم جاءت من اللغة الأسبانية ويعني "قارب" باعتبار أن السقف يأخذ شكل جسم القارب. على أية حال فقد قال / ديكي/ بأن الاسم مجرد تحريف للكلمة العربية "بركة" أو التباركات.

وقد يكون هذا التحليل صحيحاً نظراً للكتابة المنقوشة على رواق الأعمدة عند مدخل سالادي لاباركا والتي تقول : "تبارك الذي عهد إليك حكم عباده والذي من خلالك رفع مجد العالم الإسلامي ورفع من محاسنه" .

ويقول / ديكي/ أيضاً أن سيلادي لاباركا كانت غرفة نوم ولكن شكل الغرفة لم يكن لائقاً لذلك، باعتبار أنها تؤدي مباشرة إلى غرفة استقبال عامة الناس. ومن المرجح أنها كانت غرفة طعام بالرغم من عدم ظهور أدلة تدعم هذا الاحتمال أيضاً. طرأ على هذه الغرفة وبشكل خاص السقف، الكثير من أعمال الترميم إثر حريق عام ١٨٩٠م. إن المدخل الموضوعة أمامه قضبان من الحديد (والموجود على الجانب الشرقي والذي يؤدي إلى قاعة السفراء) لم يكن أصلاً ممراً للعبور لكنه كان محراباً يدل على اتجاه القبلة. على أية حال فإن / توريس بلباس/ الذي تعهد بأعمال الترميم في الثلاثينيات من عام ١٩٣٠م و ١٩٤٠م ظن بأن المحراب هو ممر للعبور واستحداث مدخلاً لم يكن أصلاً موجوداً هناك - وهذه حادثة بين الكثير من الحوادث التي تدل على أن علماء الآثار والمؤرخين للفنون أساءوا للبناء أكثر مما أحسنوا إليه .

وتجلس على جدران مدخل سالادي باجما كوة في الحائط كما تنتشر في أماكن أخرى من القصر مشكاة أو كواة مماثلة لها. يمكن أن تكون هذه الكوة قد أعدت لاحتضان المزهريات أو جرار الزينة التي قد تحتوي الماء علماً بأنها كانت توضع فقط للزينة. وكانت توضع في زوايا الغرف مزهريات فقط للعرض والزينة. إن ما يطلق عليه اسم مزهريات الحمراء هي مثال صارخ عن الجمال وعن السيراميك الذي تم صنعه وهندسته في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. إنها عبارة عن قوارير ذات جدران سميكة ولها مماسك كأنها الأجنحة ويبلغ طولها من ١٢٠-١٣٠سم وبهذا لايمكن وضعها في المشكاة بسبب حجمها. ولم يبق منها سوى عشرة قوارير. إن زخرفتها لشيء رائع. إن جرة الغزال الموجودة في متحف الحمراء هي قطعة فنية رائعة وهي مزركشة بالذهب وتحمل اللونين الأبيض والأزرق والتي على ما يبدو كانت ألوان أسرة الناصريين الحاكمة. تفاخر الإمبراطور الثاني رودواف في القرن السادس عشر في امتلاكه واحدة

من جرار الخمر التي استعملت في حفل الزواج الذي أقيم في / كانا/ احتفالاً بقيام السيد المسيح بتحويل الماء إلى نبيذ. احتفظ رودولف بهذه الجرة في خزانته التي تضم ما يسترعي فضوله ولكن هذه الجرة كانت في حقيقة الأمر واحدة من مزهريات الحمراء .

تؤدي صالة سالا دي لا باركا إلى قاعة السفراء. وإن هذه القاعة المهيبة هي من دون أدنى شك غرفة العرش وغرفة استقبال عامة الناس. إن الفجوة الموجودة في الجدار (الكيوان) والمحجوبة بنافذة من الزجاج - مقابل المدخل - هي المكان المرجح الذي يمكن أن يوضع فيه كرسي العرش. وتوجد على جانبي هذا الكيوان فجوتين أخريتين في الجدار مع نافذتين تطلان على منظر رائع لـ ريو دارو وصولاً إلى البيسين .

وصف جيمس ديكي قائمة السفراء بقوله أنها شرفة ناتئه واسعة. وكان السلطان من خلال هذه الشرفة يُمتع ناظريه بأراضيه ورعاياه. وتحت قبة القاعة مباشرة هناك آية من سورة الملك في القرآن ٦٧:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾

يمكن في أجواء ومعنى قاعة السفراء أن تقرأ الآيات القرآنية على أنها إشارة إلى فخامة الملك وبنفس الوقت تدل على القراءة الرمزية لسقف القاعة. إن هذا لمثال مُحكم عن الخشب المُطعم بالصدف والعاج والذي يشكل ما يزيد عن ثمانية آلاف قطعة من خشب الأرز. وهناك نجوم ذات إثني عشر طرفاً وهي تشكل السمة الرئيسية للنمط السائد إضافة إلى السقف بمستوياته المتدرجة الإحدى عشر من أنماط النجوم المختلفة والتي يمكن أن تُفسر على أنها تجسيد هندسي للسموات السبع في الكون. إن قاعة السفراء هي ليست القاعة التي كانت في الماضي إذ إن سقفها الخشبي الأصلي كان مطلياً بتدرج من الألوان الزاهية (كما أن ما تبقى من نقوش النجار على خلف إحدى القطع الخشبية يُسمح بإعادة تركيب بعض من فن الزخرفة بعدة ألوان والموجودة في

سقف الغرفة. لقد حُطم الزجاج الملون للنوافذ في عام ١٥٩٠م بفعل انفجار شحنة من البارود كما أن النوافذ الموجودة في أحد الجدران سُدت بالأجور للحيلولة دون انهيارها. ويبدو أيضاً أن الأرضية في الأصل كانت مرصوفة ببلاط صغير من النوع اللميع. كان المسلمون في ذلك الوقت يخلعون أحذيتهم قبل دخول القاعة ولكن مثل هذه الأرضية الفاخرة قد تُبلى سريعاً تحت وطأة أحذية المسيحيين الثقيلة / ايا كيو). فهناك فقط مساحة صغيرة في وسط القاعة مغطاة بهذا البلاط علماً بأن معظمها ليس أصلياً. أما بالنسبة لقطع البلاط التي تبدو أصلية فهي تشكل مشكلة باعتبار أن معظمها تحمل عبارة "لا غالب إلا الله". إن هذه العبارة المكتوبة بخط اليد تشكل شعاراً كما تشكل نصيحة نذير من أسرة الناصريين الحاكمة ، ولكن لايجرؤ أي مسلم على أن يطأ بقدمه على بلاطة تحمل اسم الله " .

من المحتمل أن في الجانب الجنوبي من قاعة نبات الآس العطري كانت غرفة شبيهة بغرفة سالا دي لا باركا ولكن بغض النظر عما كان هناك فقد تم تدميره لكي يتمكن تشارلز الخامس من ربط قصره بقصر "أسرة الناصريين". ويُقال إن بعضاً من الغرف الصيغرة (التي لا نوافذ لها والتي كانت موجودة في الجانبين الشرقي والغربي من قاعة نبات الآس العطري) كانت بمثابة شقق لحرم الأسرة المالكة. وبالرغم من احتمال حقيقة هذا الإدعاء فليس هناك أدلة مطلقة تؤكد هذا الشيء ويرجح أنها كانت مكاتب يجلس فيها الأشخاص البيروقراطيون. إننا، وببساطة، لا نعرف من كان يشغل هذه الغرف. فلم يكن شائعاً في القصور الإسلامية أن يكون للغرف استعمالات متعددة. وبالتأمل بالسرد العربي للجولة التي قام بها السفير البيزنطي حول القصر العباسي في بغداد في أوائل القرن العاشر، يقول المؤرخ المشهور للفن الإسلامي اوليغ غرابار في كتابه (تشكل الفن الإسلامي) إن القاعة الوحيدة التي كان مخصصاً لها عملاً محدداً هي قاعة البوابة الرئيسية: أما الوحدات الأخرى فكانت معدة للمناسبات. وقد نستنتج أنه لم تكن لتلك القصور أشكال عملية محددة وأن الأنشطة هي التي كانت تحوز على حيز من القصر. وقال أيضاً إن الرواية العربية ركزت على فرش الغرف وعلى الأشياء الثمينة

التي كانت موجودة فيها بدلاً من التركيز على الغرف بحد ذاتها لذلك لم يكن البناء في حد ذاته هو الغاية بل كانت أشكالاً أخرى داعمة للبناء مثل الإطار وخشبة المسرح هي مجال التركيز باعتبارها كانت أشكال مرئية مشاهدة يمكن تعديلها على نحو يتوافق مع الحاجة التي هي وليدة اللحظة .

وكانت حمامات مجمع الحمراء موجودة في الطرف الشرقي من قاعة نبات الآس العطري وكانت متصلة بها ومتصلة بقاعة الأسود ولكن عند مستوى منخفض. ومن المحتمل أن يكون إسماعيل الأول (١٣١٤-١٣٢٥) هو الذي أمر ببنائها - كما قام ابنه يوسف الأول ببناء ملحقات لها. إن هذا المجمع (المضاء بفتحات ونوافذ علوية) شمل على غرف حارة ودافئة وباردة وغرف للراحة وغرف من الطراز الأول فيها حمامات خاصة وإضافة إلى مواقد ومخزن للحطب. من المحتمل أن هذه الحمامات (وعلى غرار الحمامات الرومانية) كانت أماكن لإنجاز الأعمال التجارية والتعارف الاجتماعي. على أية حال، فإن الغاية الدينية من الحمام كانت هي الغاية الأكثر أهمية. ولكي يتم أداء الصلاة يجب على المسلم أن يكون مغتسلاً وعلى وضوء خاصة بعد التغوط والتبول أو النوم. أما الوضوء الأصغر فيستوجب غسل الوجه والرأس والذراعين حتى الكوع والقدمين بترتيب متسلسل ويمكن أداء هذا الوضوء أو الغسل عند حوض أو ينبوع ماء في ساحة الدار تماماً مثل الينبوع الموجود في قاعة الأسود. على أية حال فإن الاغتسال هو أمر واجب بعد الحرب أو الممارسة الجنسية أو خروج المني ولابد للمسلم من دخول الحمام للقيام بهذا الاغتسال. إن من غير اللائق أو المسموح به معاشرة المخطيات من حريم السلطان (الجواري) أو الانغماس في الشهوات الجنسية التي تتم مع تناول حبات العنب والتمتع بالنظر إلى أجسام الآخرين. كانت زيارات الحمام تتم بأوقات محددة لكل جنس على حدة من دون اختلاط كما يتوجب على المغتسلين أن يغطوا عوراتهم بالمناشف. وباعتبار أن المسليمن في مجمع الحمراء كانوا مجبرين على القدوم إلى الحمامات فقد خصصت العديد من الحمامات داخل مدينة القصر ليستعملها عامة الناس .

يؤدي المسلمون فرائض الاغتسال بسكب الماء على أجسادهم. وما نراه في

الحمراء اليوم ليس بالضبط ما كان موجوداً في الماضي. باعتبار أن ماكنتا كان يعكف على بنائه القصر في أواخر العشرينات من عام / ١٥٢٠/ ، استمر تشارلز الخامس باستعمال حام المورسيكون القدماء ولأنه كان معتاداً على الحمامات الغربية في الاغتسال فقد أمر ببناء حمام في الغرفة الحارة ونقش شعاره على الجدار «Plus Ultra» .

في القرن التاسع عشر قام كونتريراس ببرنامج قوي بهدف الترميم حيث قام في سياق هذا العمل بإزالة الشعار أعلاه وأعاد طلاء القصر وأعاد ترتيب المخطوطات. وباعتبار أنه أعمد على / ادين جونز/ وعلى كتاب جوليس غوري الخاص بالحمراء وباستعادة الألوان الخاصة بأعمال الدهان، فقد أمر بصباغة القصر بأطياف ألوان متوهجة على نحو فيه الكثير من المفارقات التاريخية (ارجع إلى الفصل الرابع من كتاب جونز وغوري) . أما بخصوص المخطوطات، فقد قام كونتريراس (الذي كان يعرف اللغة العربية) بإعادة ترتيبها بطريقة لا يمكن تفسيرها أو فهمها. هذا وتأثرت الحمامات في العقود الأخيرة بالرطوبة .

قاعة الأسود

لم تقم الأسرة الحاكمة النصرانية بأي أعمال بناء بالغة الأهمية خلال فترة الاضطرابات السياسية التي امتدت من عام ١٣٢٤م وحتى ١٣٦٢م وعندما بوشر العمل بها ظهرت بطابع مختلف تماماً. وفي هذه الأيام تقوم الجولات السياحية بالتحرك مباشرة من قاعة نبات الآس العطري إلى القصر ومن ثم إلى قاعة الأسود ولكن لم تكن الحالة أصلاً على هذا النحو. كان قصر الأسود أثناء حكم أسرة «النصرانيين» بناء مستقل تماماً يمكن الوصول إليه عن طريق الشارع. وكان البناءان متصلان فقط في عهد الملك فرديناند والملكة ايزابيلا. إن قصر الأسود هو عينة حديثة ويشتق تسميته من الأسود المنحوتة من الصخر والتي تدعم البركة الموجودة في وسط فناء القصر. لاتوجد سوى مراجع قليلة جداً عن الحياة في أواخر القرن الرابع عشر في غرناطة لذلك فلا يمكننا أن نتأكد من التسمية التي كانت أصلا تُطلق على هذا المكان. ويقول جيمس ديكي أن المخطوطات المنقوشة على النافذة الناتئة في بناء كنداراكا تشير إلى كلمة نافذة بعبارة عين دار عيشه فهذا يعني أنه لابد وأن تكون التسمية الأصلية لهذا القصر وفقاً لاسم

عائشة التي كانت إحدى زوجات السلطان محمد الخامس. على أية حال لا نعرف اسم ولا واحدة من زوجات السلطان علاوة على أن فرناندس بويرتاس ليس على ثقة تامة بأن مجمع هذه الأبنية كان يحمل اسم «قصر الرياض» وكلمة رياض تعني «حدائق» أو «مقابر». ولقد استنتج هذا الأمر من إحدى قصائد ابن زمرك والتي يشير بها الشاعر إلى القصر بعبارة «الرياض» ومن النقوش التي جمعها والموجودة على أسوار قاعة الشقيقتان والتي تبدأ بالتالي: أنا الروض ... ويُذكر أن البناء كان بالفعل يطل على مقبرة أسرة «الناصريين» الحاكمة .

على أية حال فمن المحتمل أن يكون كلاً من ديكي و فرناندیز مخطئين. وكما سأوضح في الفصل الثالث فإنه من المستحيل أن يكون «قصر الأسود» قصراً في الأصل. وبنفس الوقت قد نتساءل : ماسبب بناء قصر ثاني ؟ ألم يكن لدى محمد الخامس ما يكفي من القصور ؟ ويقول بعض الأدباء أن قصر كوماريس كان القصر الذي يأتي إليه عامة الناس وهو المكان الذي كان يمارس فيه الحاكم أعماله، في حين كانت قاعة الأسود المكان الخاص المحجوز للسلطان ولنسائه (أو حريمه). ولا توجد أدلة خاصة لتؤكد هذا الطرح .

وبعد عودة محمد الخامس وحاشيته من المنفى في فاس أقيمت حفلة كبيرة بمناسبة عيد المولد النبوي في شهر كانون الأول من عام ١٣٦٢م في الموقع الذي من المفترض أن تقام عليه قاعة الأسود مستقبلاً. وكانت تلك الحفلة مناسبة لإظهار أعمال الإنشاء التي تمت مؤخراً على مجمع قاعة الأسود ولم تكن سوى قاعة الشقيقتان قد بُنيت مع نهاية عام ١٣٦٢م. أمر السلطان بإزالة معظم الأماكن الخاصة بوالده وأمر منذ ذلك الوقت بالبدء في إعادة البناء. شهدت تلك الحفلة ولائم ومواعظ وإلقاء قصائد شعرية، ورقص وركوب الخيل. وبعد ذلك الحفل بفترة وجيزة بدأت أعمال البناء. والجدير بالذكر هنا أن الوزير والشاعر المعاصر له ابن الخطيب أكد حدوث هذه الاحتفالات بالرغم من أن عرضهما كان غامضاً بعض الشيء وعرضة لعدة تفسيرات ولكنها هي المصدر الوحيد الذي يدل على الطريق التي كانت تستخدم بها أي جزء من مجمع الحمراء قبل عام / ١٤٩٢/ . وبالرغم من وجود الكثير من الأمور الفنية والتاريخية التي يُمكن

أن تُقال عن قاعة الأسود ولكن الشيء الأول الذي لابد من الإشارة إليه هو أن هذه القاعة واحدة من أجمل الأبنية في العالم وهناك العديد من الناس الذين يقولن بأكثر من ذلك الوصف والجمال. إن التناسب والدقة والإسهاب في الزخرفة المعمارية شيء يحبس الأنفاس (ويمكن أن يكون وصف جمال تلك القاعة مضاعف عند مشاهدتها تحت ضوء القمر). يتولد لدى المرء إحساس بأن هندستها المعمارية شيء هابط من السماء وليس مجرد شيء جاثم على الأرض. إن الستائر المتشكلة من أعمال صخرية تبدو خيالية ووهمية والمرتدة نحو الظلال تضعنا تحت تأثير مجسم ثلاثي الأبعاد. يوجد في منتصف فناء القصر حوض تدعمه / على ما يبدو إثني عشر شكلاً من الأسود المنحوتة من الصخر التي قد يتضاعف عددها مع خروج الماء من النوافير. إن هذه الأسود المحفورة من الصخر والتي تحدق في أشعة الشمس لا تدعم / في حقيقة الأمر الينبوع. إن قنوات الماء الأربع تجري من النبع لتقسم فناء القصر إلى أربعة أرباع ويبلغ طول كل واحدة منها ضعف طول عرضها. هناك شعور بالحنان والحنو إلى ذلك المكان. اقترح ديكي بأن هذا كان نسخة عن فله ريفية للفاتحين المسلمين (المورسكيين) في وسط القرية .

وبالرغم من الوفرة المفرطة في الزخرفة يبقى هناك إحساس باهت تجاه قاعة الأسود. وقد قارن مايكل جيكوبس مؤلف العديد من الكتب الرائعة عن الأندلسيا هذه القاعة بـ(زين) حديقة الصخرة. ولكن لم تكن دائماً على ذلك النحو. إذ إن المنظر الخارجي الحجري للقصر (والذي يسر الناظرين والذي يتحلى بلمسات متفرقة من الدهان الباهتة ألوانه) هو منظر زائف بالنسبة للأصالة التي كان عليها في العصور الوسطى. كانت الحجارة والمجسمات الجصية في القرن الرابع عشر مطلية باللون الأزرق والذهبي وألوان أخرى ظاهرة بطريقة مبهرجة دلالة على ذوق سقيم إضافة إلى سجاد متألق رائع وستائر موضوعة حول فناء القصر وفي مكان المساحة الحالية المغطاة بالجص كان هناك مركز قاعة الأسود والتي هي عبارة عن حديقة مملوءة بالزهور وأشجار البرتقال. قد تكون الحديقة قد غاصت في الأرض وانخفض مستواها لكي لا تحجب الزهور منظر الينبوع. ويمكن لأربعة ممرات مشاه تكون قد أنشأت من الصخر والتقت جميعها عند النبعة.

وتشير رواية عام ١٦٠٢م الخاصة بقاعة الأسود أن كل ربع من فناء القصر احتوى على ستة أشجار برتقال كانت تنمو وتتطاول وسط أرضية من الزهور. ويُقال أيضاً أن شكل الحديقة كان مرتكزاً على طراز التصميم الحدائقي الفارسي والذي يأخذ شكل مستطيل مُقسم إلى أربعة قنوات مائية. ومن وجهة النظر هذه فيصبح من الممكن التخيل أن الأبنية كانت أكثر من مجرد إطار يضم الحديقة الفارهة .

إن الإدارة الحالية لمجمع الحمراء تقاوم مطالب تهدف إلى إعادة ترميم الحديقة المفترضة وذلك بناء على ادعاءات معقولة مفادها أن الحديقة والسد المرتفع الذي تواجد لأغراض الري قد يسبب ضرراً طويل الأمد لأساسات الأبنية المحيطة بها. والأكثر من ذلك فقد لا تكون هناك حديقة تواجدت في الأصل خلال فترة وجود الفاتحين المسلمين. وفي مقالة نُشرت باللغة الأسبانية قبل بضعة عقود من الزمن قال انريك فوير حاتوكو أنه في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت القاعة خالية تماماً من النباتات وكانت مرصوفة بالرخام. واستند في زعمه هذا على شهادة رحال ألماني يدعى هيرونيموس منذر الذي تحدث عن الجولة التي قام بها في مجمعات الحمراء في عام ١٤٩٤م . كان / منذر/ متحمساً لمجمع الحمراء وبشكل خاص للرخام الذي كان يغطي فناء القصر المحتوي على الينبوع. لم يكن ليصدق أن لتلك الحديقة مثيل في أوروبا. ويقول إنها أصبحت حديقة فقط في القرن التاسع عشر. انتقد ريتشارد فورد (الذي زار الحمراء في الأربعينيات من عام ١٨٤٠م) السلطات لأنها حولت الساحة إلى حديقة وقامت ببيع الرخام الأصلي المرصوف في أرضيتها . وقد أدى الاستعمال السيء لقاعة الأسود إلى إلحاق ضرر بالغ بالقاعة، فالسقف الموجود فيها هو سقف حديث وتم إنشاءه في عام / ١٧٧٠/ . أما الحديقة الكوكنيه اللندنية فهي فرنسية والطلاء الأبيض والترميمات فهي أسبانية. والشيء القوي الأثر هو الطريقة التي نعتمد فيها على وصف الزائرين الغربيين لكي نشكل صورة عن الشكل الذي كان عليه القصر سابقاً. مجدّ ابن الخطيب وابن زمراك إضافة إلى عدد محدود من الكتاب العرب القصر بقصائد شعرية غزيرة وروايات نثرية ولكنها مكتوبة بعموميات لا يمكن التأكد منها. لقد كان أعضاء حاشية

الأسرة الحاكمة «النصرانية» مهرة في استخدام العبارات المبهجة المادحة .

لقد تم إزالة المدخل الأصلي للواجهة الجنوبية من قاعة الأسود حيث نُقش على الركائز تاريخ البناء لكن تمت إزالته لربط البناء مع قصر تشارلز الخامس. إن الغرفة الباقية والموجودة في الطرف الجنوبي من قاعة الأسود تُعرف باسم قاعة ابن سراج (ولا يُعرف سبب لتلك التسمية). إن البلاط الموجود في هذه الغرفة ليس أصيلاً لكن يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر. في تلك الفترة كانت قاعة ابن سراج محصورة (ولا يزال بابها الخشبي موجوداً) ولذلك كان بالإمكان العيش فيها في فترة الشتاء. والبركة الرخامية في الوسط مطليه باللون الأحمر وفي بداية القرن التاسع عشر قيل إلى / ايرفينج/ إن بنو سراج هم الذين دهنوا البركة بذلك اللون (وبنو سراج عشيرة قوية من رجال الحاشية، وسقط العديد منهم ضحايا المجزرة التي حدثت في القرن الخامس عشر. ولا يزال الأدلاء السائحين يردون «القصة القديمة للدم والعنف» منذ ذلك التاريخ .

إن الأسود الموجودة في وسط فناء القصر ليست منحوتة بشكل حقيقي وواقعي. ويقول ريتشارد فود الكاتب الرحالة في القرن التاسع عشر أن وجوه الأسود محروقة وأسماءها محفورة وكأنها حيوان نصفه نسر ونصفه أسد وكأن أرجلها دعائم سرير للنوم ومم ينقص من عزتها تلك الماسورة المحشورة في أفواهها. كانت في عهد سابق مطلية بألوان زاهية. وعلى العكس مما تدعيه العديد من الكتب الإرشادية فإن تاريخ هذه الأسود يعود إلى القرن الثامن عشر وليس للقرن الحادي عشر. يوجد في متحف الحمراء تمثالين شبيهين بتماثيل هذه الأسود غير الواقعية وكأنها نُحتت من قبل نحات واحد وكانت منصوبة في فترة من الفترات على أرض أحد المستشفيات التي أنشأها محمد الخامس في البيسين وهي منطقة عبر الوادي في الجهة المقابلة لمجمع الحمراء. على أية حال فإن ارتفاع هذه الأسود التي كانت تحرس المستشفى وتندفع المياه من أفواهها يصل إلى متر ونصف المتر وهي في وضعية القرفصاء بدلاً من أن تكون واقفة متأهبة. وهناك نقوش على الصخر الموجود حول الينبوع في ساحة قاعة الأسود والذي كتبه ابن

رمزك على النحو التالي :

من حيث المظهر يبدو أن السائل والمادة الصلبة يتحدثان مع بعضهما البعض لدرجة أنه لا يمكن القول أي منهما يتحرك . وكتب أيضاً قصيدة شعرية تصف بدقة كيفية عمل الينبوع في قلب الساحة التي أطلق عليها اسم «دار الرياض» .

وفي هذه الأيام يدخل السائحون إلى قاعة الأسود قادمين من قصر كوماريس في الجانب الغربي وذلك من خلال قاعة «موكا رابيس». لم يكن من حيث الأصل باباً موجوداً بين هذين القصرين وكانت واجهة قاعة الأسود الرئيسية تطل على جهة الجانب الجنوبي .

حظيت قاعة موكارابيس الطويلة بتسميتها هذه من كلمة سقف «مقرنس» وهو لم يعد موجوداً. إن السقف الذي نراه في هذه الأيام ليس السقف الأصلي باعتبار أن ضرراً كبيراً لحق بالسقف الأصلي بسبب انفجار البارود الذي حدث في عام ١٥٩٠م وتم وضع سقف بديل في القرن السابع عشر. وتشير كلمة «مقرنس» إلى نظام إبراز أكواه أو مشكاة في الحائط للدلالة على مناطق التجول ولأغراض الزينة كما أنه ينجم عن استعمالها هوابط كلسيه وقرص عسل وهي أشياء تتميز بها مجمعات قصر الحمراء. يبدو أن كلمة مقرنس جاءت من شمال شرق إيران في القرن العاشر وجاءت من بلاد شمال أفريقيا في القرن الحادي عشر. إن موكارابيس هي نمط من أنماط المقرنس والتي لها شعبيتها في العالم الإسلامي الغربي وسأورد المزيد من الشروحات عنها في الفقرات أدناه وبالتحديد عندما نتحدث عن قاعة الشقيقتان. وبالرغم من أن المهندسين استعملوا المقرنس في كافة مناطق العالم الإسلامي (وهناك أمثلة صارخة عنها في النصب التذكارية الإيرانية) إلا أن طريقة تعامل الأسبان والعرب في شمال أفريقيا مع «شكل قرص العسل» تركت تأثيراً قوياً على أسلوب الهندسة الغربية وعلى المصممين الذين حاولوا إدخال التصاميم الشرقية والأفكار الرئيسية في العمل الفني في إبداعاتهم. تعتمد النزوات على تقليد الهندسة الشرقية كما هي الحال في بريطانيا وفي أميريكا وفي مناطق أخرى من العالم. فقد عمدت إلى تقليد مجمع الحمراء من حيث أقواسه وقناطيره وأسقفته وعمدت إلى تقليد الهند من حيث القبب والمآذن الموجودة هناك .

وفي الجهة المقابلة لـ موكارابيس، على الجانب الشرقي من قاعة الأسود توجد قاعة الملوك والتي تظهر فيها مساحات مربعة وأخرى مستطيلة على نحو تعاقبي. إن السمة البارزة في هذه المنطقة فهي تقوس أو قبب الأسقف المطلية برسومات تمت بجص تصويري مثبت على الجلد يظهر صور الرجال والنساء وأشكال خيالية أخرى. ولا يوجد شيء مؤكد يدل على ما تمثله هذه الرسومات الجصية أو يدل على هوية الشخص الذي قام بها. ويقول المستشرق العظيم (إن لم يكن مجنوناً بعض الشيء) والذي يدعى لويس ماسيجنون) أن الفنانين المسلمين هم من قاموا بذلك العمل ولكن أدباء آخرين يروون هذه الرسومات على أنها من صميم التقليد الغربي. في الواقع لم تكن الرسوم التشبيهية شيء متبع في الأندلس أثناء الحكم الإسلامي هناك. ولا يوجد سوى مخطوط واحد من المرحلة التي حكم فيها العرب المسلمون أسبانيا. لذلك فقد قيل أن محمد الخامس استعار رسامين من حليفه السياسي بدرو الحاكم الشرس لمنطقة كاستايل .

إن صورة الرجال العشرة المرسومة على أرض إحدى الفجوات في جدار غرفة النوم قد تكون صورة أول عشرة حكام من أسرة «النصرانيين» الحاكمة. (ولكن هذا أمر مستحيل خاصة إذا تم الرسم في عهد محمد الخامس باعتبار أنه كان الثامن في سلسلة حكام الأسرة الحاكمة. من ناحية أخرى فقد تمثل هذه اللوحة صور الحكماء العظام أو مشاهير الكتاب. إن القراءة الأكثر إقناعاً لهذه الرسومات الخيالية والموجودة إلى جانب الأقواس هي التي طرحتها المؤرخة الأميريكية جيريلين دودز والتي قالت إن عبيد المسلمين الذين أرسلهم بيدرو هم الذين قاموا برسم كل تلك اللوحات. وتقول أيضاً قد يكون هؤلاء الفنانين مطلعين على الفنون المسيحية من خلال القصص الرومانسية الأوروبية والتي تم نسجها على علب من العاج للمجوهرات. ولكنهم لم يكونوا على دراية تامة بها لذلك خلطوا الأفكار الرئيسية الموجودة في قصص رومانسية مختلفة بطريقة لم تفضِ إلى قصة واحدة يمكن قراءتها من هذه الرسومات .

وفي الطرف الشمالي من الساحة هناك قاعة الشقيقتان والتي، كما أشرنا سابقاً، كانت الجزء الوحيد من قاعة الأسود والتي تكون قد بُنيت في عام / ١٣٦٢/ . لا معنى منطقي

من وراء اسمها أكثر مما هو منطقي بالنسبة لأسماء أجزاء أخرى من قاعة الأسود. إن عبارة / شقيقتان/ تدل على لوحين كبيرين من الرخام موجودان على أرض القاعة. ومثل قاعة ابن سراج، فكان هناك باب كبير لقاعة الشقيقتان لكن تم نقل ذلك الباب إلى متحف مجمع الحمراء. وتحتوي القاعة أيضاً على نوافذ زجاجية مدهونة بالأصباغ المختلفة لكن انفجار البارود في عام ١٥٩٠ أدى إلى تحطيمها وإزالتها. وبقيت القاعة، من نواح أخرى، على شكل مقبول نوعاً ما. يتألف سقف المقرنس مما يزيد عن خمسة آلاف قطعة موشورية براقة. وقد احتوى السقف أيضاً على سبعة أشبال موشورية مصنوعة من الجص. إن الغاية من المقرنس هو التوسط بين الشكل الإسطواني للسقف ذو الزوايا الثمانية وشكل الغرفة المستطيلة الشكل. يبدو السقف وكأنه يطفو على قاعة لا تدعمها أية جدران والمنظر برمته هو انطلاقة نحو السماء .

إن لهذا السقف ولنقوشه وزخرفته الرائعة من تأثير بالغ في ترجيع الصدى ومن المحتمل جداً أن تلاوة القرآن والحفلات والأمسيات كانت تعقد في هذه القاعة. لو تُرك هذا السقف على حاله لكان له تأثير كبير في تقليل رجوع الصدى. يبدو أن تلك الفترة شهدت تقليداً عريقاً في تصميم الغرف بشكل يناسب الحفلات الملكية. وتدل الدراسة التي قام بها روبرت هاملتون على القصور الأموية في سوريا وبالتحديد في خربة الغجر والتي تعود إلى القرن الثامن عشر أن غرفة الموسيقى في ذلك القصر كانت تحتوي على سلسلة من الأجزاء الناتئة النصف دائرية والتي تغطيها أشكال شبيهة بالقبب كما أن الأشكال المقعرة العاكسة لهذه الأشكال مع وجود قبة في أعلى الساحة المركزية، جميعها صممت لتبرز جمال صوت المغنية/ المغني الذي يحمله ذكاءه على الوقوف في منتصف السجادة المركزية وهو المكان المخصص للغناء .

هناك غرفة متداخلة تربط قاعة الشقيقتان مع قاعة لندا راكسا وهي القاعة المزركشة والمزخرفة على نحو جميل جداً والتي تطل على منظر رائع. إن اسمها هو تحريف أسباني من التسمية العربية «عين دار عيشة». والفكرة التصورية هنا تتمثل في النافذة المزدوجة التي تمثل عين الحاكم والتي من خلالها يطل على أملاكه وأصقاع حكمه. وتقول بعض النقوش

التي جمعها / ابن زمرق/ من هذا المكان أنني في هذه الحديقة بمثابة العين الراضية وأن بؤبؤ هذه العين هوسيدي الحاكم وهو جالس إلى كرسي عرشه ينظر نحو عاصمة مملكته .

إن هذا هو مثال نموذجي استعمله ابن زمرق للشعر كأداة للاعتزاز والافتخار. إنها أيضاً إطراء فيه الجبن والخوف باعتبار أن محمد الخامس ليس لديه الحق في أن يدعي بأنه خليفة أو زعيم روحي للسنة في العالم الإسلامي. كان في الماضي يطل المرء من هذا المنظر الخلاب على حديقة مترامية الأطراف ومنها يجول بناظريه عبر منطقة البيشن لكن ذلك المنظر قد تم حجبه لأن محمد الخامس قرر أن تُبنى شقق سكنه حول الجهة الشمالية والجهة الشرقية من حديقة لنداراكا التي تقلصت أبعادها .

حدائق وقصور ضائعة

إن التصميم الهندسي لحديقة لنداراكا يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة للمنظر التي تطل عليه. إن التمييز بين الداخل والخارج في داخل قلعة الأسود هو غير مكتمل باعتبار أن قنوات الماء تجري من الينبوع المركزي مروراً بالغرف الموجودة على الجانب الشرقي والجانب الغربي. علاوة على ذلك فإن المهندسين الذين عملوا على بناء مجمعات الحمراء هم الذين عملوا على الحدائق والمياه والإنارة. وصف / روبرت هيلين براند/ هذا التداخل بين عناصر البناء على النحو البليغ التالي :

> **إن مجمع الحمراء يجمع قوى الطبيعة ويجعلها تبرز عند كل منعطف مثال ذلك المياه في حركاتها: إنها تنزل قطرة قطرة وهي تجري وتتساقط كالشلال أو تتدفع أو تتفجر – كما أنها قد تكون راكدة في صفاء وهدوء: وهناك الاجمات والأشجار المحاطة بالأسلاك الشائكة بحرص وعناية إضافة إلى مسكبات الزهور ووميض رؤوس الجبال والحدائق المحاطة بإطار فيه بوابات وهناك الشرفات الناتئة والمباني التي تطلق على مناظر خلابة والتي صممت بشكل ذكي لتستغل المناظر المنتشرة على مد النظر وفوق هذا كله هناك الإنارة. إن مجمع الحمراء يبدي التباين والتناظر بين الإنارة والظلام بشكل متقن إضافة إلى وجود مداخل منخفضة ومنافذ طويلة تدخل منها أشعة الشمس بحيث تشكل في الداخل زوايا وظلال. وهناك الممرات ذات الإنارة الخفيفة والتي تنتهي وبشكل مفاجيء عند ساحات مكشوفة لاستقبال أشعة الشمس الساطعة والضوء الذي تعكسه أسطح مياه البحيرات الهادئة أو تعكسه الجدران المكسوة ببلاط لامع.**

إن انفتاح أبنية الحمراء على الأماكن المكشوفة إضافة إلى تغير المساحات الداخلية والخارجية والاستعمال المرن للمساحة لتدل على أعمال قام بها لوكوز بوسيير (وهو

مهندس سويسري اكتشف (في بداية عمله المهني) الذكاء والتداخل الرائع والأحجام التي تبدو في ضوء النهار متجانسة تماماً والموجودة جميعها في مجمع الحمراء. إن كلمة «روضة» تعني حديقة لكن كما أشرنا سابقاً فهي تعني أيضاً «المقبرة». كانت مقبرة أسرة الناصريين بقبورها المعرشة موجودة في الجهة الجنوبية من قاعة الأسود ومن المرجح أن يكون إسماعيل الأول هو الذي أوجدها لكن قد تمت إزالة معظمها تمهيداً لبناء قصر تشارلز الخامس كما أن رخام المقابر قد استُعمل لأغراض أخرى. إن العديد من رخام المقابر الأصلية وألواح الرخام الأبيض موجودة حالياً في متحف الحمراء. كانت المقابر الموجودة في العالم الإسلامي (إضافة إلى الوشاح الأسود الدال على الحداد ونبات الآس العطري ونباتات أخرى) أماكن شعبية مفضلة لإقامة النزهات والعزف على الأدوات الموسيقية. ولعل الإحساس بالزوال وعدم البقاء والغناء الذي يغمر المرء أثناء وجوده في هذه الأماكن قد يضفي لمسة حزينة إلى متعة المتنزهين. إن هذه الحديقة الدنوية المنبثقة من المقابر شكلت تصور معين عن الفردوس الموعود . جاء في حديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) «إن بين قبري ومنبري روض من رياض الجنة» لذا من المحتمل أيضاً أن المسجد الملكي الكبير والذي بناه محمد الثالث في الفترة ما بين ١٣٠٣م و ١٣٠٥م إلى الجنوب من المقبرة كان من أجمل أبنية مجمع الحمراء. ألف ابن الخطيب قصيدة شعر تشيد بجمال رخام المقبرة والفسيفساء والمصابيح الفضية الموجودة فيها. ومن المحزن أنه تم إزالة المقبرة في الستينات من عام ١٥٦٠م لفسح المجال لبناء كنيسة سانتا ماريا البشعة في مجمع الحمراء والتي شملت كل أرجاء المقبرة ولايزال قائم منها سوى حمام المسجد الذي رممه / توريس بالياس/ في عام ١٩٣٤م. والقصر الأخير الذي لابد من الإشارة إليه هو قصر / كوندي دي تنديلا/ ولكن يصعب التحدث عنه لأنه أزيل من الوجود. كان هذا القصر موجوداً إلى الجنوب الشرقي من قصر برتال وهو قصر بناه هنا محمد الثاني ولكن أعاد بناءه بشكل مسهب يوسف الثالث (١٤٠٨-١٤١٧). يبدو أن القصر كان مؤلفاً من سلسلة من السرادقات أو السرداق الموجودة حول بركة في وسطه.

ويرى منذر أن هذا القصر هو الأجمل من بين كافة القصور. اختاره ملوك / تنديلا/ وهم الحكام الورثة لمجمع الحمراء في ظل الملوك الكاثوليك ليكون مكاناً لسكناهم. على أية حال عندما أطاح / فيليب الخامس/ في عام ١٧١٧م بالماركيز (موندیجار) وريث ملوك تنديلا أقدم على إزالة القصر من الوجود استجابة لنزوة غضب وكبرياء مجروح .

بالإضافة إلى القصور، كان في مجمع الحمراء في مرحلة من المراحل ثلاثين برجاً على أقل تقدير منتشرة على الأسوار بمسافات متباعدة غير منتظمة لكن لم يبق منها سوى / ٢٢/ برج. عمل الملك فرديناند والملكة اليزابيلا على تخفيض ارتفاع بعض هذه الأبراج لكي لا تكون في خط مرمى المدفعية. وكان معظمها قد بني لأغراض عسكرية ولكن اثنين منها كانا في الواقع بمثابة قصرين صغيرين. إن برج توري دي لاكوتينا والمعروف باسم / كلاهيورا ثويفا/ والذي بناه يوسف الأول موجود على السور الخارجي للدفاع والذي يقع إلى الشرق من قصر / برتال/ . إن برج «الأمير الأسيرة» لهو اسم خيالي وهمي. أشار ابن الجياب (الذي كان وزيراً في بلاط يوسف الأول وخليفة ابن الخطيب كشاعر للبلاط الملكي) إلى البناء بموجب نقوش موجودة على أسواره باسم تالاهيورا - وهي تعني برج عسكري ينام فيه الجنود. إن الأعمال الجصية والبلاط الموجود في البرج مشابهة لأعمال الجص والبلاط الوجود في قاعة بنات الآس العطري التي افتتحها يوسف الأول أيضاً. وفي مرحلة من تاريخ هذا البرج أتت النيران عليه تبع ذلك ترميم أرضيته وسقفه. والبرج الذي يلي برج يوسف (ويقال له برج كالاهيورا تويفا الذي بناه محمد السابع) - أعطى اسماً رومانسياً وهو برج «الأميرات». من المحتمل وغير المؤكد أنه بُني في نهاية القرن الرابع عشر. وإذا كان هذا التاريخ صحيحاً فهو آخر مثال عن أعمال البناء التي قام بها الفاتحون المسلمون في مجمع الحمراء .

يبدو أن سكن البرج بُني على غرار قاعة الشقيقتان لكن البرج خسر تقوسه الأصلي «المقرنس» بسبب هزة أرضية لحقت بالمنطقة. وجد البعض نخراً حصل بسبب فقر الزخرفة والزركشة. ويقول فيرديناندیس بويرتاس: يبدي هذا البرج (بأشكاله الهندسية

الرائعة وأي جانب الأشكال السطحية البسيطة) ترد مذهل طراً على مدى العشرين سنة الماضية. لكن هذا التردي شيء نسبي من وجهة نظر الناظرين لكن في الماضي حظي هذا البرج بإعجاب الناظرين إليه. وعادة يغُلق هذين البرجين في وجه الزوار، كما لا تفتح الغرف العلوية من قاعة نبات الآس العطري وغرف قاعة الأسود ولا تفتح الحمامات الموجودة فيها أيضاً. كما سبق وشاهدنا لا يمكن زيارة صروح أثرية أخرى لأنها أصلاً غير موجودة. إن من يزور مجمع الحمراء في هذه الأيام يجب أن يدرك أن ما يراه ما هو إلا جزءاً صغيراً مما كان موجوداً في عام ١٤٩٢م. لقد تمت إزالة ثلاثة من القصور إضافة إلى المسجد الكبير والسوق التجاري المزدحم والمنطقة الصناعية التي كانت موجودة إلى الجانب الشرقي من مجموعة القصور. إذ تخيل الأمراء ورجال الحاشية الملكية والخفارة أو الحرس في القرون الماضية شيء لكان استحضار الأشباح الموجودة في البناء ثمة شيء آخر .

كانت الحدائق امتداد خارجي للأبنية وقد بُني العديد منها لتأطير منظر هذه الحدائق. وبالرغم من أنها جميلة ومسره إلا أن حدائق الحمراء والحياة العامة تعكس ذوق البستنة في أسبانيا في عشرينيات عام ١٩٢٠م ولا تعكس حقائق القصور الوسطى. يبدو من الممكن جداً أن تحظى الحدائق بالنسبة لزوار وسكان الحمراء بالأفضلية على الأبنية التي اشيدت بينها ولكن لم يعد بالإمكان إعادة بناء المظهر الخارجي الأصلي للحدائق باستثناء عمل ذلك وفق خطوط أكثر شمولية. إذ معظم النباتات التي نراها اليوم لم يعرفها المسلمون الفاتحون للأندلس كما أنهم لم يزرعوا الورود في أحواض. فكانوا يفضلون بذر بذور الورود لتنمو بين العشب الأخضر. ويبدو أن مساحات واسعة قد خصصت لبناء المطبخ ولأعمال صيانة الحدائق والرعاية بالخيول وإطعامها. لم تكن حدائق جنرالايف موصولة بالقصور في أيام العرب المسلمين الفاتحين للأندلس. لذلك عندما كان السلطان يريد زيارة أملاكه فكان يركب خيله من الحمراء إلى هناك. من المحتمل أن يكون قد تم بناء الحديقة في أوائل عقود القرن الرابع عشر وكانت بمثابة مكان للهروب من متاعب إدارة الحكم. وبالرغم من اشتقاق كلمة جنيرالايف من

عبارة / جني العارف/ أو «حديقة المهندس» أو «حديقة المعرفة بالشؤون الروحية» وأصبحت قطعة جوفاء من المعارف التقليدية إلا أن هذا التعليل لأصل الكلمة غير وارد. فنحن لا نعرف سبب اكتساب الحديقة لهذا الاسم. يبدو أن الحديقة كان يطلق عليها أصلاً اسم «البستان الرئيسي» وأن الجزء الأساسي المتبقي من الحديقة هو المعروف باسم «ساحة حديقة الماء» إضافة إلى السرداق الشمالي والساحة التي يترجل فيها الخيالة. وكما هي الحال في قاعة نبات الآس العطري فإن في الباحة المرصوفة قناة ماء طويلة تجري في الوسط. وإن الينابيع التي تمد القناة بالماء هي تعكس مفارقات تاريخية باعتبار أن المسلمين في ذلك الوقت لم يفضلوا البرك التي تقذف الماء. (على أية حال، فمع بداية القرن السادس عشر عندما زار تافا غبيرو الحديقة كانت البرك موجودة هناك). تم بعد عام ١٤٩٢م إعادة بناء البرك بشكل كبير كما أنه تم تحويل الشرف الناتئة إلى كنائس صغيرة باعتبار أن الملك فرديناند والملكة ازابيلا كانا مولعين جداً بحديقة جنيز لايف.

٩- يبدو في الصورة ساحة حديقة الماء وهي من ضمن حدائق جنير الايف. فبالنسبة للمسلمين الورعين فإن هذه الحدائق كانت تلهمهم أفكاراً عن الجنة كما جاء وصفها في القرآن الكريم. وبالرغم من أن المصممين المسلمين في العصور الوسطى كانوا يضعوا البرك في الأبنية والحدائق إلا أنهم كانوا يفضلون البرك التي ينساب الماء منها بدلاً من البرك الساكنة. لذلك نقول إن الملوك الكاثوليك بعد عام ١٤٩٢م كانوا أول من أنشأ اندفاع الماء على الشكل الذي يبدو في الصورة.

كما أن العديد من الزوار الذين قدموا إلى غرناطة في القرن التاسع عشر أعجبوا بالحدائق أكثر مم أعجبوا بالقصور. وخلال فترة الترميم التي أجريت على ساحة دي لا اسيكويا إثر حريق عام ١٩٥٨، تم الكشف عن المخطط الأصلي للحديقة والكشف أيضاً عن نظام الري ولكن سرعان ما تم إتلافها جميعاً. كان للحديقة في الأصل تصميم صليبي الشكل إضافة إلى أحواض للزهور دون مستوى ممرات المشاه. وعند الطرف العلوي لايزال يوجد مجرى ماء متدرج واحد جميل المنظر. يبدو أن مجرى الماء هذا (والدرابزين العلوي الذي يحمل جداول من الماء) يؤدي في نهاية المسار إلى كنيسة صغيرة لكنها تلاشت منذ ذلك التاريخ ولم تعد موجودة .

الملوك المسيحيين

بعد عام ١٤٩٢م أضيف إلى الحمراء قصر ملكي وهي حالة بقيت قائمة حتى عام ١٨٦٨. وعندما انتقل الملك فرديناند والملكة ايزابيلا للعيش في الحمراء وجدا أن القصور كانت في وضعية مزرية وحشدوا العمال المسلمين الحرفيين للقيام بأعمال الترميم (وتم جمع هؤلاء العمال مجدداً عندما ألحقت الهزة الأرضية التي حدثت في عام ١٥٢٢م ضرراً بالغاً في قاعة الأسود). وفي عام ١٤٩٥قدم الملوك الكاثوليك موقع قصر النصرانيين إلى جماعة الفرانسيسكان ليكون ديراً إلى رهبانهم. وفي أواخر القرن السادس عشر تم بناء كنيسة مكان المسجد .

ورثت / خوانا/ (وهي ابنة الملك فرديناند والملكة إيزابيلا) منطقة كاستايل وأصبحت تتطلع لأخذ قصور المسلمين الفاتحين للأندلس. وبعد فترة من الزمن أعطتها إلى ابنها تشارلز الذي أصبح ملكاً على أسبانيا في عام ١٥١٦م وأصبح الامبراطور الروماني المقدس في عام ١٥١٩م .

وبصفته ملكاً لأسبانيا، كان لتشارلز الخامس إمبراطورية عظيمة في العالم الجديد ووصل حكمه حتى هولندا ونابولي وصقلية وسردينيا. ودل شعاره الذي يحمل عبارة «Plus Ultra» على طموحه في السفر وفتح بلاد تقع وراء أعمدة هرقل وصولاً إلى نهاية

أطراف العالم. كان كاثوليكياً متشدداً. وأول عمل قام به عندما دخل غرناطة في عام ١٥٢٦ كان إقامة محكمة تعسفية لملاحقة المسلمين المتنسبين سراً إلى طائفة مسلمة والذين سبق وأن تظاهروا باعتناق المسيحية. ومع ذلك فقد كان متحمساً ومشجعاً للمهندسين المورسكيين (أي العرب المسلمين الفاتحين للأندلس). وعندما دخل للمرة الأولى إلى مسجد قرطبة الكبير الرائع في القرن الحادي عشر وشاهد كنيسة كاثوليكية كان القساوسة قد زرعوها في قلب غابة الأقواس التي بناها المورسكيين العرب قال مؤنباً" كان يمكن لكم أو لأي جماعة آخرين أن يبنوا هذه الكنيسة في أي مكان آخر لكنكم دمرتم شيء فريد من نوعه في العالم. قام بزيارته إلى غرناطة في عام ١٥٢٦ برفقة زوجته ايزابيل لقضاء شهر العسل فيها ونزل معها في مجمعات الحمراء وتحديداً في جزء من القصر الذي سكنه في وقت لاحق (واشنطن ايرفنج). وبعد أن تجول في الحمراء، أدى تشارلز أولى برأيه المتعلق بتنحي / بول ديل/ عن الحكم حيث قال: "لو كنت هنا أو لو أن بول ديل كان مكاني لجعلت هذا المكان ضريحاً وقبراً لي. وبالرغم من أنه كان معجباً في المكان إلا أنه لم يكن مناسباً للقيام بأعمال إدارية حكومية واسعة النطاق أو مناسباً لاستقبال الحملات والهيئات الأجنبية علاوة على أنه كان بارداً جداً في الشتاء. لذلك قام وعلى الفور بتكليف لمهندس / بدرو ماتشوكا/ بأن يبني له قصراً حديثاً على طراز عصر النهضة في مكان داخل مجمعات الحمراء. درس / بدرو/ أصلاً فن الرسم وعمل في ايطاليا مع رفائيل ومايكل انجلو. وبعد وفاته في عام ١٥٥٠قام فريق من المهندسين بإنهاء ما بدأ به / بدرو/ واستمر العمل في القصر لعهود طويلة إلى أن تم هجره كلية. وبما أن المهندسين لم يتمموا بناء السقف فقد أدى ذلك إلى تدهور وتردي حالة البناء. وبعدها استُعمل البناء كمكان تخزن فيه مادة البارود ومواد أخرى. وأثناء حرب شبه الجزيرة الأسبانية قام الفرنسيون (إذ أقام معظمهم في معسكرات مقتة في العراء في دير سان فرانسيسكو) بتجريد القصر من كافة الأعمال الخشبية وحرقها للتدفئة. ولم ينتهِ من العمل في القصر والذي أمر به تشارلز في عام ١٥٢٦م إلا في القرن

العشرين. وبالرغم من التعارض بين قصر تشارلز وقصور "النصرانيين" التي تتاخم قصر تشارلز فقد كان قصر صارخاً (من حيث الأسلوب وحجم العمل) إلا أن البناء المعماري في عصر النهضة كان عملاً هندسياً رائعاً بحد ذاته. قال ريتشارد نورد الذي زار الحمراء في عام ١٨٤٠م أن الأسبانيين فضلوا قصر تشارلز لأنه قصراً لهم. فكان القصر يتألف من ساحة بهو تكثر فيه الأعمدة الموجودة في وسط البناء الذي أخذ شكل المربع - ولعله كان على طراز الفلل الإيطالية غير أنه لم يكن على نحو جميل مؤثر. كانت واجهات البناء الريفي تشبهه الواجهات الخارجية للعديد من العصور الرومانية في فينيسيا. كانت على الجدران ميداليات منحوتة تجسد الانتصارات التي حققها تشارلز كما تجسد التصاميم الإمبريالية. أما الغرف في الداخل فكانت أوسع من الغرف الموجودة في قصور أسرة "النصرانيين" الحاكمة. وبالرغم من أن الساحة الموجودة في منتصف القصر والتي كانت محاطة بالأعمدة كان لها منظراً كئيباً بعض الشيء، إلا أن المهندس ماكيوشا على ما يبدو كان يخطط لإنشاء حديقة في ذلك المكان. وبالحديث عن أوجه التباين بين قصور المورسكيين العرب وقصر عصر النهضة المسيحية، يمكن القول إن المؤرخ ألفي كامي وأخوانه صرحوا بأن مجمعات الحمراء تتميز بكونها شاملة تضاف فيها الأشياء إلى بعضها البعض وهي متعددة الألوان ومنتشرة على مساحة واسعة مع نقوش مزركشة داخلية وتطل على مناظر خارجية في حين أن القصر المسيحي يأخذ شكل المربع وهو رتيب ذو احتواء ذاتي مزخرف من الخارج لكن انطوائي من حيث المنظر. هناك تقليد أدبي طويل يقلل ويحط من قدر قصر تشارلز الخامس. في الحقيقة لابأس من فرض بناء قصور معينة لكنها كانت تُقام في الأماكن غير المناسبة .

ومنذ القرن السابع عشر وما تلاه، بدأت كافة قصور الحمراء تتعرض لأوقات عصيبة: فقد حدثت عدة هزات أرضية إضافة إلى حرائق كان بعضها عرضي وبعضها الآخر متعمد. وفي عام ١٦٦٤م تحولت القصور الإسلامية إلى ملاذ قضائي لا تُنتهك حرمته من يأوي إليه من الأشخاص المثقل كاهلهم بالديون .

١٠ – تبدو في الصورة إحدى واجهات قصر تشارلز الخامس والتي بُني معظمها ولم ينتهي العمل بها في القرن السادس عشر. إن المنصة الريفية الظاهرة في واحة القصر إضافة إلى تصميم القصر هي وفقاً للطراز الذي كان في ذلك الوقت سائداً في ايطاليا. وبالرغم من أن قصر تشارلز هو تحفة فنية رائعة بحد ذاته إلا أن حجمه (بالمقارنة مع قصور أسرة «النصرانيين» الحاكمة في الحمراء) تعرض للانتقاد اللاذع ووصف على أنه عمل تخريبي.

وفي أوقات أخرى كانت الأبنية تستخدم لإسكان عبيد الفرسان أو الخيالة ولنزول الجنود الذين لا يصلحون للخدمة وللسجناء والمجرمين والغجر كما أنها كانت تستعمل كأبنيه لتخزين البارود. نجحت القوات الفرنسية التي احتلت القصور خلال حرب شبه الجزيرة الأسبانية في تفجير ثمانية من أبراج المورسكيين العرب كم أن الأبنية تعرضت للمزيد من الخراب خلال حرب عام ١٨١٢م (كارلست). وفي أوائل القرن التاسع عشر استعمل قصر باتو دي كوارتو دورادو كحظيرة كما أن قصور الحمراء تحولت إلى قرية زراعية من الأكواخ الوضعية. ويقول / ريتشارد فورد/ إن الجنود المرضى الذين لايصلحون للخدمة والمتسولون والمجرمون هدموا وشوهوا الساحات الخارجية لمجمع الحمراء - وكانت جميعها إشارات تدل على الضعف والفقر في أسبانيا. وفي عام ١٨٧٠م أعلنت الدولة أن الأبنية جميعها هي ممتلكات ونصب تذكارية وطنية (على الرغم من أن الكثير منها في هذه الأيام لايزال بمثابة ممتلكات فردية). لم يكتفِ السائحون الذين قدموا إليها في القرن التاسع عشر بنقش أسمائهم على الأسوار والجدران

بل قام بعضهم باستخدام الأزميل لقطع أجزاء من المجسمات الجصية وأخذها كذكرى للزيارة التي قاموا بها. وفي عام / ١٨٩٠/ أقدم أحد الأشخاص على إضرام النار بشكل متعمد تحت الصالة الشمالية لقاعة نبات الآس العطري وأدى ذلك الحريق إلى إلحاق أضرار بالغة بالمكان .

يميل المؤرخون للنظر إلى مجمع الحمراء على أنه وثيقة تاريخية وهذه وجهة نظر اتفق معها كلية. على أية حال فإن تلك هي ليست الطريقة الوحيدة التي يمكن أن ننظر من خلالها إلى الحمراء فإن الممولين يهمهم تأمين المواد الغذائية وتلبية احتياجات وتوقعات السائحين. فإن الانتقال السريع والمراوغة في تنقل العصابات في مناطق الحمراء تختلف كلية عن الطريقة التي دخل بها المورسكييون العرب الفاتحين إلى الحمراء حيث كانوا يؤدون أعمالهم ويخلدون للراحة فيها. إنه من الصعب، حتى على السائحين، أن لا يتأثروا وينـزعجوا من تصرف سائح آخر في جماعتهم. فإن الكثير منهم متأثرين ومنهمكين بمتابعة العرض السينمائي السياحي أو بمتابعة الدليل السياحي وهو يقول لهم بأنهم قد يجدون الأبنية نوعاً من التسلية واللهو. يمكن الحصول على شيء من هذا اللهو والتسلية من خلال القصص التي يقولها الأدلاء السياحيين وينسبون نظريات مختلفة منسية لتاريخ هذه الأبنية. ويقول دليل سياحي يعمل لدى شركة لونلي بلانيت إن حوالي / ٦٠٠٠/ سائح في اليوم يمرون عبر مجمعات الحمراء كما أن تقديم وجبات الطعام لهم قد شوه منظر الحمراء. ومن ناحية أخرى يمكن القول إنه لولا الأموال التي تدفعها الحملات السياحية لما كانت أبنية الحمراء موجودة ولتمت إزالتها منذ عهد طويل. ويمكن أن يصبح بعض من هؤلاء السائحين جزءًا من تاريخ أبنية الحمراء. وسبقنا في ذلك كل من واشنطن إيرفنج وشانديرياند .